www.kotobarabia.com

رواية

الرجل الذى يأكل نفسه

www.kotobarabia.com

خليل النعيمى

رواية

الرُّجل الذي يأكُل نفسَه

خليل النُّعيمي

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

الفهرس

القسم الأول ٥

(١) ٧
(٢) ٣٠
(٣) ٣٧
(٤) ٤٨
(٥) ٦٦
(٦) ٧٩
(٧) ٨٨
(٨) ٩٣
(٩) ١٠٠
(١٠) ١٠٨
(١١) ١١٧
(١٢) ١٢٨

القسم الثاني ١٣٥

(١) ١٣٦
(٢) ١٤١
(٣) ١٥٦
(٤) ١٦٢
(٥) ١٦٩
(٦) ١٧٧
(٧) ١٨٣
(٨) ١٩٠
(٩) ١٩٣
(١٠) ١٩٧
(١١) ٢٠٥
(١٢) ٢١١

القسم الأول

افتحي ذراعيك..

لتحتضنيني

ها أنذا قادم..

أيتها الأرض

(١)

سئمت انتظار طلوع الزرع بعد البذار أرضي قاحلـــة، لا تنبت عشبًا، مياهي شحيحة، إحساسي بالتضاؤل يأكلني بنهم، الزمن يمضي، لا يعود القهقرى. وحدي أصارع هذا العالم، ليس من أحد معي، حتى نفسي تهرب مني وتفر، الماضـــي يذوب، يتلاشى حتى لكأنه لم يكن، وأظـــل وحيـــدًا، أواجـــه مصيري وأنا أضعف ما أكون.

ليس من أمل في الخلاص، لن أختبئ خلف الكلمات، لن أرضخ للعالم، لن أعطي للألفاظ أكثر من معنى، ســـأكون محددًا، لأن حياتي تخصني وحدي، الآن، أجده رائعًا قـــول المركيز دي ساد: " لو قُدر لي أن أدمـــر هـــذا العـــالم لمـــا توانيت، لو قدر لي أن أسيطر على حركة الكواكب فأعطلها لفعلت ".

هذا العالم، يمضغني كما تمضغ أفعى جائعة طيـــرًا أزغب، يطؤني بلا رحمة، كقطاعي اللبن الأقوياء، ســـأحاول أن أرد له الكيل كيلين، لا أعتقد أني أفتقر إلى البراءة كمـــا سيحلو للبعض أن يصفني، لست لا إنسانيًا أيضًا، إن أعماقي

كما أحبها تتضح بالأنس وتفيض بحب الغير، لهذا أود تدمير العالم، لأنقذه، لأعيد تكوينه من جديد، لن يكون ثمة نجاة لأحد، العذاب يأخذ برقابنا، الزمن يمر، في حين نخوض في الفناء بتسارع أكبر.

السواد يخيم على الوجود، الفرح يلبس ثياب الحزن، يمشي في ظلاله، الناس لا يعون ذلك، الغباء يملأ رءوسهم، أنا..؟! طريق خلاصي وحيد الاتجاه، يمر عبر وحشة الحياة، الوحدة تدميني، مخازي التاريخ تمضغني كتنين هائل، عبر الأعوام التي أكلتها، لم أجد كوة منورة، آلاف الأشياء تنمو في داخلي بقدر واحد، أين أتجه؟!

أناضل؟ آه. لم أزل أسير بين الجامعة وبيتي، لم أصل بعد ذلك الكوخ المهدم، لم أتعش، إني تعب، تعب لدرجة لا أصدق معها متى أصل، رغم ذلك سأناضل، سأكون ذا شأن.. شأن؟... من يدري؟.. ما كنت ذا شأن يوما، ولم أكن الآن أيضًا، المستقبل؟ المستقبل لم يأت بعد، ربما لن يأتي أبدًا.. كل ما لديَّ من الزمن اللحظة الحاضرة، وأنا لم أبرح أنا الماضي.

منذ ولـــدت وأنـــا أحمـــل النيـــر، نيـــر عبـــوديتي اللاملحوظة، لم يشاركني همومي أحد، آكل أيـــامي وحيـــدًا كحمار الوحش، نفور غير محدود يحيط بي، لابـــد أن أمـــي خائفة؟.. أمي؟.. دفنتها منذ بضع سنوات، ليتنـــي أدري مـــا عدد الأعوام التي مرت، كأن آلاف السنين تفصل هذه اللحظة عن تلك، كانت مريضة، يغشاها الذبول، الســـرطان يأكـــل جسدها بشراهة كضيف قادم من بعيد.

الآن، الألم الذي يعتصر قلبي، يجعلني أمر كـــالبرق على الماضي، الألم ممحاة للذكرى، لكني سأظل أمينًا لأمي، آخر مرة زرتها كانت قاب قوسين من القبر، تصارع الموت وهي أشد ما تكون شحوبًا، لونها ترابي، لم يكن قد بقى مـــن جسمها سوى الأثر، حتى عظامه ذابت، أشـــارت برأســـها، دنوت منها:

ـــ بني، تعدني؟ أتعدني؟

ـــ أماه..

سالت الدموع، لكني بلعتها، لحستها، جففتها، لســـت أدري كيف أجبت:

ـــ أنا؟

لم تنظر إليَّ، تململت قليلاً، جاء صوتها من مسافات بعيدة، كنبض وتر شديد الارتخاء:

ــ خذ.. وإذا بخمس ليرات تستقر في كفي، شـــددت عليها، ضممت الدراهم، وضعتها في جيبي. وقفت مشـــدوهًا كنت أعلم أنها المرة الأخيرة التي أراهـــا، تأملتهـــا كانـــت شاحبة، مضنية، قليلة الحركة، تكاد لا تحس، لا ترى.. وقفت كعمود من الرخام وقد مضغني الشرود.

أختي هي الأخرى مريضة، أولادها سبعة، حالتهـــا سيئة، حاولنا أن ندخلها إحدى مشافي دمشق، لم يكن، ذلـــك سهلاً، بقيت في البيت، عندنا، معنا، غدًا ستأتي لزيارة أمـــي ستذوب، أعرف أختي، المرض العضال ملأها حنانًا وعطفًا كناقة فقدت حوارها، الأسى الذي اعتصر عودهـــا الطـــري جعل منها إنسانة سريعة التأثر تحب ثيابها العتيقة كما تحـــب ابنها الصغير..

أي ضير في أن يستعيد الإنسان ذكرياته كما يشـــاء، لا يقيدها، لا يضبطها، ماذا؟ هل للناس حصة في ذكريـــاتي أيضًا؟ سئمت هذا الانصياع اللامجـــدي، يصـــعب أن يأخـــذ الناس المكان اللائق بهم في ذهني، أشعر أنني مقيد حتى في

حالة تذكري، أسلب كل شيء، لست مع مشاركة هذا العالم السمج شيئًا، جدراني صمٌ لا تحوي سما واحدًا، حواجز لا يمكن تخطيها تفصلني عن الآخرين، جابهت احتضار أمي وحدي، الممرضة التي كانت واقفة قربي لم يطرف لها جفن، لا زلت أذكر قول أمي:

ــ مللت هذا المشفى الكئيب، لا أريد أن أبقى، أخيرًا سأموت، ما جدوى أن أماطل؟ انظر كيف أصبحت بعدما كنت ممتلئة بالحياة، الموت يا ولدي ليس شرًا، وهو ليس انتهاء، إنه شيء آخر، حالتي الآن كحالة هذا السرير البارد، كيف أمسك عنان الزمن؟ أعيده من جديد وأعيد معه صباي! أتذكر أمك؟.. كيف كانت تجمع أكوام السنابل المتناثرة بحيوية بالغة، كنتم، أنتم الصغار، بحاجة إلى من يطعمكم، الحياة كانت تنبع من بين أصابعي، كنت حية آنذاك، أما الآن فأنا ميت، لا يريد أن يعترف بذلك..

ــ أماه، الحياة لا تستحق أن تعاش، لن أقول لك اسكتي خوفًا عليك، بل حرصًا على كلماتك، على ذكرياتك، على استعادة ما هو أثمن من الحياة، نفسها، كم أود أن تصمتي..

ــ حزنتْ؟ بدأت أهذي؟..

ــ الناس كلهم يهذون، ليس ثمة عاقل واحــد فــيهم، أحس بالهمود يدب في مفاصلي، ذاتي مليئة بالموت، أقــول ذاتي، رغم يقيني بأنك لا تعرفين معنى هذه الكلمــة، لأنهــا غير ذات معنى، لأنها جوفاء، كالقدر الذي أفرغ من محتواه، لا شيء آخر عندي أقوله، إذا شئت استمري..

ــ بُني! لا أطلب شيئًا فوق طاقتــك، عشــت ضــد رغبتي، الآن حيث كل شيء ينحسر.. أريد أن ترانــي دون ستر، تجشمت عناء هذه السنين الهزيلة دون جــدوى، أريــد منك شيئًا واحدًا: أن تهتم بنفسك وبهم، كنت زانية، لكن قلبي كان يفيض بحبكم، من أحلكم تحملت جفاء والدك الكســول.. وهبت حياتي لكم. الموت راحة، لكنه يبعــدني عنــك، هــذا مؤلم، أكثر من الموت.

أدرت لها ظهري، انحدرت الــدموع مــن عينــي، امتلأت بالمرارة واللوعة، كان الأسى يعتصر فؤادي، لم أذق في يوم ما طعم الخذلان، ذلك اليوم شعرت بانحلال تام فــي قواي إزاء اعتراف أمي ونبرة الحزن المشوب بحب كبير في

صوتها، أحبها، أوصتني بهم، الاهتمام بالآخرين سخف، لم تكن زانية، تريد أن تظل حية، كيف أحقق لها ذلك؟..

غادرتها وهي تحتضر، كنت أعرف أنها ستموت، أشك أنها تهذي، أعرفها جيدًا، أدرك مقدار احتمالها للألم، كنت واثقًا أنا جادة رغم علائم الأسى على محياها الذابل.

الآن، وأمي في ضريحها منذ أكثر من خمس سنين، يبدو لي أن قولها كان معقولاً، معقولاً لدرجة لا تدع مجالاً للشك، إن من يحس بالعذاب يتجاوز النهائي إلى اللانهائي، عبر حياتي المزرية أصبحت متأكدًا أن الأسى باب المعرفة، من لا يتأسى لن يكون آدميًا قط، لم أعد أصدق أن النفس تحتاج للراحة بقدر ما تحتاج للأسى، أيقنت أن التعاليم التي أُتْخِمْت بها ليس إلا أقياء حضارات سخيفة مملوءة بالدنس، إنني مؤمن الآن، حيث عشت خمس سنوات بعد أمي، إن حياتي ستكون شريطًا دون محتوى، إنني لا أنوي أن أنفذ ما طلبته مني، بل أصر على إنهاء حياتي المؤسية.

لم أظل، أواجه هذا العالم الخبيث ببراءتي البكر؟ ولِمَ أظل أواجهه بنفس الإحساس القذر الذي عانيته طيلة سنوات عمري المنصرمة؟

الماضي كالسيف يحز لحظتي الحاضرة، إنه مسلط فوق رأسي، لا يمكن نسيانه، كنت أعتقد أن أهم ما منحته الطبيعة للإنسان هو وظيفة النسيان، لكن من يعش لا ينس، الآن أواجه كل الماضي، كل الدنس، بروح مملوءة بالخيبة، سأنتهي قريبًا، كل شيء سيمر كلحظة خدرة، منعشة لذيذة، حيث صممت على الانتهاء، لا أجد ألذ من الإحساس بالزمن، بجريانه، بالعالم النتن، هذا، أشم رائحته الوسخة اللزجة.. أنظر حولي بذهول، لن يكون ثمة عالم بعد اليوم، سوف أقبره معي، أدفنه تحت قدمي، سأدوس هذا العالم الآسر الأخاذ، أسمم كل شيء فيه.

سأنتقم لأمي.. التي حرمت شهقة الهواء، الآن، وأنا واثق جدًا أنها تخضع لتفاعلات كيماوية، تعيد مكوناتها إلى التربة، تحرر ذراتها، أريد أن يدب التفسخ في كل شيء، أن أرى أطرافي يأكلها العفن رويدًا.. رويدا..

لكم أتمنى أن تتعطل دورتي الدموية، أن يتسلق التموت والاسوداد أطرافي، لأرى صورة الموت في جسدي، مللت الموت الهائل الذي أراه عند الآخرين، لست متطرفًا في هذا الاعتبار، الموت الجسدي حادثة تحلل خلال مراحل

طويلة، إننا نموت منذ اللحظة التي نولد فيها، نموت تدريجيًا خلال كل عصرنا، على عتبة القبر، تتم أضأل لحظة من لحظات الموت وأهونها، فيما يتعلق بالنفس، يمكن اعتباري ميتًا منذ لحظة الميلاد..

ما جدوى أن أمارس هذا الزيف، هذا التشوه، أن أبيع نفسي للشيطان، على أن أنتهي من هذا الهُراء سريعًا، هل كانت أمي عاقلة عندما حثتني على الاهتمام بهم وبي؟ ما معنى ذلك؟ أية غاية نحققها من استمرارنا؟

طالما أننا نواجه الشقاء منفردين، من يقول أن العالم عاقل.؟ علىَّ أن أبتر أطرافي، أن أشذب أعضائي الواحد تلو الآخر، لأرى نقصي بعيني، سئمت أسطورة الكمال، لن أبالغ إذا قلت: كنت على أننا نواجه الشقاء منفردين، من يقول أن العالم عاقل.؟ على أن أبتر أطرافي، أن أشذب أعضائي الواحد تلو الآخر، لأرى نقصي بعيني، سئمت أسطورة الكمال، لن أبالغ إذا قلت: كنت على يقين دومًا أن العالم دوني لا يساوي شيئًا. لكني سأموت، كل شيء سينتهي، مأساتي تكمن في أني أستعجل النهاية، أريد أن أصنع كل ما أراه بي، يجردني من كل شعور إنساني..

لا زلت، ألدغ نفسي، كعقرب مليء بالسم، لا خير يرجى مني، يا إلهي، ما أروع أن أدمر كل شيء أن أضع متفجرات تحت عتبة البيت، بيتنا، في ليلة مظلمة كئيبة، أن أجعل كل شيء ينهار، وأن أتمتع كنيرون بمشهد الخراب. إنني بمثل هذا العمل لجدير، ما أنا إلا مسيح دون حواريين، سأبدأ بأبي، كم أفرح إذا حذفته من الوجود، مللت ادعاءاته، آخر الليالي، كان يعود تعبًا من السهرات في الريف، يروي لأمي قصص بني هلال، والزير، والزناتي، كنت أفرح بهذه القصص، دائمًا أنام باكرًا، لأستيقظ عندما يصل، كانت السعادة تطفر من خلايا جسمي، آه.. لو كانت الأيام كلها طفولة! ما كان ثمة أروع نها، النضج يشوِّه كل شيء ويدنيه من نهايته عادة تكون أمي المسكينة تعبة، غارقة في نوم عميق، لكن والدي لم يكن أنانيًا، كان يصر على إيقاظها.

ــ هيه.. هيه.. ألا تريدين سماع بقية القصة؟

ــ أية قصة..؟

ــ قصة الزناتي خليفة، قتله دياب بن غانم.

ــ قتله؟ قتله؟ كيف حدث ذلك؟..

ـ الأمور لا تسير دائمًا كما نتوقع، أشـياء كثيـرة تتدخل في لحظات لا نملك دفعها، خانته سعدة..

ـ ابنته، تصوري ابنته، اللعينة ساعدت على قتله، لم يكن مناسبًا، الحواجز والسدود: الآخرون، لا يريدون ذلـك. ضِعتُ. الزمن يتضاءل يموت، ينطوي، أعود هذه اللحظـة إلى أيام طفولتي العذبة الشقية، أين يكمن كل هذا الكـم مـن الزمن؟ كيف أمسك تلك اللحظات القاسية، وأمررها من جديد عبر نفسي، لحظة، لحظة؟ هل يمكن أن أعيش حياتي الغابرة مرة ثانية كما أريدها، كما أتصورها؟ لا لن أموت قبـل أن أستعيد ما مضى، إن إحساسًا شنيعًا بالعطالة يراودنـي الآن، يبدو أني فاشل حقًا، لا شيء جميل أملكه، لا قدرة لي علـى عمل شيء جميل، إني كسيح إزاء عالم واسع لا أسـتطع أن أمشيه، وجهي المستطيل الأسحم يبعث الحزن والكآبة فـيمن يراه، قامتي النحيلة لا توحي بالثقة، كل شيء قد وضع فـي المكان غير الملائم، لكنني وحدي أملك إمكانيـة استحضـار الماضي بكل دقائقه، بكل هفواته، شكلي لا يريح لكـن مـا مضى يخصني، وحدي أستطيع تذكره بدقة.

الآن، يقبض السؤال على قلبي، لماذا أمـــوت؟ مـــا جدوى أن أغادر؟ الأفضل أن أدع الذكريات تتداعى كبنـــاء قديم تعرض لصدمة قوية، هذا هو الموت الـــذي أريـــده، لا الموت الفيزيائي، أريد أن أتشـــبث بالحيـــاة، بكـــل صـــلفها ووقارها وأساها، الحياة عزيزة عليَّ، لكن خلودي إلى الراحة أمر مريع، الصراع الناشب في أعماقي يحركني، يســـوقني نحو الهاوية، أقف الآن على جوف النهاية المريع، كل شيء يميد تحت قدمي، الزمن وحده الآن سيد الموقف، لن يكـــون بإمكاني امتطاء عرش الاستقرار، القلق يأخذ بخناقي، تداعي الذكريات يبعث اضطرابًا عنيفا عندهم كفؤله غدرت به.

ــ لا تقل هذا، لا أصدق، البارحة كان يبدد شـــمهلم، تريد إثارتي، كُفّ عن ذلك، إني يقظة.

ــ لا.. الأشياء السيئة صحيحة دائمًا، لا يمزح العاقل بالسوء.

ــ كيف؟..

ــ أحبَّتْ أميرًا شابًا من بني هلال.

ــ إن كان هذا حقًا فالأمور تجري كما هو مقدر لها.

أتدري؟. يوم كنت أذرف الدموع عند قدميك، أتوسل إليك.. أتذكر يوم أخرجت من جيبي ذلك المسحوق الأبيض، المصرور بقطعة ثياب بالية، وهددت بتناوله إن لم نتزوج؟. لم يكن سُمًّا، كنت أكذب، الصدق أحيانًا قاس، كلمس قطعة من الحديد البارد، إننا مغلوبون على أمرنا.

لماذا لا نعرف قيمة الأشياء قبل زوالها!! أحس بدنو أجلي، موت الزناتي يقلقني.

ــ لا تكن أحمقًا، دعنا من كل ذلك.. اقترب..

هكذا.. كانت أيام الطفولة تجري كالقش على سطح نهر جار ليس ثمة ما يدعو للدهشة، سُعدة على حق، أجمل ما في الحياة الخيانة، واللؤم، والقسوة.

أبدًا، سأظل ملعونًا، لأن روحي مملوءة بالخبث، أشعر بالدمار الأسود، كالدخان العاصف، يمر بهدوء وثقة عبر ذاتي، يملؤها بالتصميم والإرادة وأعظم إرادة هي ما تنجم عن رغبة التدمير، إن أي تنازل نبذله سيكون لعنة أبدية تلاحقنا، الأمور واضحة تمامًا، كالرؤية في ضوء النهار، ليس ثمة أمل في النجاة، وصية أمي، الطوق الذي لا يفك، سأشب عنه، أنا جسدي ملكي، لا يشاركني به أحد، لن

أخضع عند تعذيب نفسي لإرادة الآخـــرين، إن كـــان ثمـــة مشاركة قسرية مع الناس فيما يختص بذهني، فلـــيس ثمـــة إمكانية لمشاركتهم ألمي، ذهن أي منا مجموعة من الذهنيات المتمازجة، المتداخلة، انحشرت داخل دماغه قسرًا، ليس ثمة حياة نفسية مستقلة لأحد، لسنا إلا مجموعـــة مـــن الصـــور الباهتة للآخرين، أريد أن أتخلص من هؤلاء داخل رأســـي، من حسن الحظ أن كل ذلك متواجد في بدني وأنـــا المالـــك الوحيد لهذا البدن، التحول والذكريات خير ما نحصل عليـــه من معايشة الآخرين. عندما كنت صغيرًا لـــم يكـــن والـــدي يأمرني، كنت أميل إلى الأحلام والتخيل. كانت الدنيا تبدو لي خضراء، حتى الصحاري التي كنا نقيم فيها كنت أراها جنات وارفة الظلال، أخي الأكبر مني أحب إحدى راعيات الإبـــل، بنت جارنا الهَرِم، ضربه والدي، هرب، طلب مني أن أرعى النوق، كنت لا أتجاوز الثامنة، ركبت ظهر ناقتي، صـــرخت بصوت ناعم حنون ضئيل.. دهو.. دهو.. دهـــو.. خطـــت ناقتي الممتلئة خطوات هادئة نحو المرعى، كان كل شـــيء غاية في الجمال. المضارب السود. كالخنافس اللاطئـــة فـــي بقعة هائلة المساحة، الدخان الأشهب المتصاعد مـــن شـــقوق

البيوت العائمة، الندى الفضي الذي سقط على أوراق الأعشاب الصغيرة، الوقت كان صباحًا، الشمس احتجبت خلف غيماتٍ بِيضٍ، باهتة، الرعاة بدأوا يمدون، ما أجمل ذلك الزمن، أي شيء يمكن أن يكون أكثر صدقًا والتصاقًا بالذات؟ يومها سرحت، لم آكل ولم أشرب، تركت النوق ترعى كما تشاء أعناقها المكسوة بالوبر جميلة، حنينها كان رائعًا، نمت تحت بطن إحداها، لم تترك طيلة مدة نومي، ظلت تظللني كأم رءوم تحنو على وليدها...

الآن، يبدو ذلك قديمًا جدًا، كبدء الخليقة، مضيء، ما مضى يموت يضمحل من حياتنا، لكنه يخلد على صفحات ذهننا المستثار، كانت نُسيمات المرعى منعشة، لذيذة، بادرني أحد الرعاة، صديق أخي؟..

- تنامون معًا؟..
- من؟..
- أنت وأبوك وأمك وإخوتك.. أقصد شقيقاتك..
- كلنا، نحن السبعة في نفس الخيمة.
- كيف ترتبون أوضاعكم، أعتقد أنك تمزح.
- قلت لك ننام معًا.

- هذا لا يصدق، هل تستيقظ مثلاً على...
- على ماذا؟
- لا تستطيع أن تدرك ولا أستطيع أن أشرح لك..
- قل ما تريد.. أفهم.. أتعلم القرآن منذ أشهر.
- إذن لم جئت ترعى هذه الإبل؟..
- أخي غاب.
- لو أتت أختك..
- جئت أنا..
- كان أخوك يركب " أتانا " لم تركبها أنت..
- أخذتها أختي إلى النبع.

كل ما قيل يومها لم ينس، أستطيع عمل أي شيء إلا النسيان، ما يؤرقني هو هذه الذاكرة الخبيثة، سأكون ضحيتها، الزمن لا يمر فحسب، بل يسلب الآن، الحاضر، بعض قيمته وأحياناً يعطيه كل قيمته، أحياناً أخرى يضفي عليه ظلالاً من السواد واللا زورد.

سوف أظل أواجه هذا العالم بارتعاش نزق حتى تحين ساعة خلاصي، حتى أتصدى بسهامي المسمومة للمحيط.

ما أجمل أن أفكر دون حدود، أو أقول كل ما أريد دون خوف، أن يرتفع صوتي كهدير جمال هائجة، من يريد أن يهدم هذا العالم ليس عليه أن يكون أبكم. ليس عليه أن يكون أحد بُناته، مضت لحظات الصدق الخالص والانسجام اللامشروط مع المحيط.

أشعر أن حاجزًا رهيبًا يقوم بيني وبين الآخرين، غرقت في ذاتي حتى لم يعد بإمكاني الخلاص منها، الانتماء إلى هذا العالم يعني التخلي عن نفسي، هذا معناه الموت، والتفرد يعني الارتداد إلى أعماقي الآسنة الملوثة، هذا أيضًا يعني الموت، ما هو طريق الخلاص؟ كيف يمكن أن أتوجه على صواب؟..

تبًا لي! سأظل تائها، دونما حدود أو نهاية، لم أبدًا قط، الأشياء التي تبدأ لابد أن تنتهي، ما لا بدء له لن يكون ذا نهاية، هكذا ظللت في المنتصف، أبحث عن شيء لا أعرفه، لم أحقق شيئًا، انصرفت دائمًا إلى أعماقي، كنت خبيثًا وأقنعت نفسي ببراءتي، كنت نذلاً حين شعرت أني أفضل بَشَرٍ وجد على الأرض..

ـــ لا..

ــ إذن تعال..

انتحينا جانبًا، على قارعة الطريق الترابيــة قعــدنا، بأصابعنا السود الوسخة أخرجنا كل ما تحوي داخلها من لب أحمر ندي، مسحنا أيدينا بثيابنا الوسخة القاسية من ترســبات سيلان البطيخ عليها، بعدها تابعنا المسير، كانــت الشــمس تتحدر بهدوء نحو الأفق، الأرض غيــر المزروعــة بــدت جميلة، وبدا التل لنا عاليًا، عاليًا جدًا قلت لأخي:

ــ ما أجمل هذه القمة ــ قمة التل ــ حبذا لو كــان منزلنا فوقها.

ــ منزلنا في أعلى التل؟..

لم أجب، كنت أشعر بالانهيار فــي أعمــاقي، كــأن وحولاً شديدة اللزوجة تتجمع داخلي، أمل التي كانت شــابة قوية، تربعت في تلك اللحظة على عــرش أفكــاري، كــان والدي يشاجرها لأجلي:

ــ كفى، إنه صغير، سوف أدلله.

ــ لا، ليس بهذا الشكل، تتركين له قعر القِدْر الــذي تغلين فيه الحليب، لا بأس، لماذا تتركين له حليبًا أيضًا؟. لن تُكوِّني شيئًا من حليب عنزاتك الخمس بهذه الطريقة.

ــ لا أرجو الحصول على ثروة من حليــب خمــس عنزات..

ــ من أين ستلبسين؟..

ــ أبيع الروث، سأهتم بذلك، لن أحتاج مساعدتك... أعرف كسلك.

ــ تريدين أن أعمل؟ تهذين؟.

ــ لا أريد منك شيئًا، دعْ الصغير وشأنه.

كان أخي في تلك اللحظات يتابع النظر إلى الأراضي البور المجاورة للأراضي المزروعة، كانت العادة آنــذاك أن يزرع نصف الأرض ويترك نصفها الآخر للعام القادم.

اليوم، ما جدوى هذه الذكريات، لقد كبرت، تعلمــت، حصلت على الثانوية، وصلت إلى الجامعة، مشكلتي ازدادت تعقيدًا: " العباقرة لا يولدون مرتين "، كان هذا أردأ حــديث للأستاذ في درسه الأخير، إساءة شديدة اعتقدت أنها موجهــة لي، في صغري لم تتحقق نبوءتي، في فترة شبابي تعــذبت كثيرًا لأثبت نفسي كرجل فذ، لكن الأستاذ الأبله، ردد ببرودة أعصاب أن العباقرة لا يولدون مرتين، سأظل إذن أواجه هذا الفشل الذريع، لم أعد أصدق أني سيد نفسي، أشعر أني الآن

كما كنت دائمًا صدىً للآخرين الذين هم غرباء عني، الجميع كانوا ضد أن أكون أكثر مما أنا، كيف يمكن أن أحب نفسي إذن؟.. كيف يمكن أن أواجه ذاتـــي؟ إذا كانـــت أمورنـــا لا تخضع لنا، إذن كنا لا نريد ما نعلمه، ما هو دورنا كأحيـــاء، أتساءل؟..

كلية الفلسفة، التي لم تكن غير تاريخ حركة الفكـــر وحضارة الإنسان، جعلت مني أسوأ إنسان موجود، نيتشـــه، عندما نادى بإرادة القوة، لم يكن غبيًا، كان مضطهدًا، كـــان مريضًا، هذا يكفي، أنا مريض أيضًا. ذكرياتي القديمة عوامل مُمْرِضَة وبائية، الانعتاق الاجتماعي يمكن أن يـــؤدي إلـــى الموت، لكن الاندماج موت حتمي، مثل هذه التعـــابير التـــي تنتهي دائمًا نفس النهايات، لهي من أفتك الأمراض.

حاليًا، أطرح المشكلة كالآتي: يمكن أن أتحرر مـــن المجتمع نهائيًا، لا أتعامل مع أحد، لكن ما هي سني؟. خمس وعشرون سنة، لماذا لم أتحرر قبل ذلك، منذ الطفولة الأولى، ما جدوى انعزالي الآن؟.. إنه ضرب من الجنون، علـــى أن أغوص في باطن المجتمع كالحجر الذي يســـقط فـــي بئـــر،

وليكن موتًا محققًا، أريد أن أعض، أسناني أصبحت حادة كنصول السكاكين، تشتهي انغراسها في الدم كحاملٍ تتوحَّم..

أريد أن أنغمس في المجتمع حتى خصيلات شعري، لن أضع حدًا بيني وبين الآخرين، أريد أن أتعامل معهم وكأني أتعامل مع كائنات شفافة، واضحة ذكية، كيف أتمكن من ذلك.. إن أيًا منهم يحمل صليبه على كتفه، ليس ثمة إمكانية لكسبه، بوقوفي إلى جانبه لن أؤكد له إلا شعور الكراهية، لا تكمن المشكلة هنا، أتساءل: اندماجي بالآخرين يعني حالة الذوبان الكاملة معهم، ستصبح " الأنا " الخاصة بي الـ " هم " اللابسة جلدي، هذا يعني موتي أيضًا، موتي اللامشرِّف، المقيت، المحزن المخزي، كيف أوحد هاتين المقولتين؟.. الأمور المتضادة لا تجتمع في كل واحد، الفلسفة الحديثة تقبل ذلك: التناقض كامن في بنية الأشياء، هكذا يقول الفلاسفة الجدليون.

هذه هي السخافات الكبيرة التي تعلمتها من دراستي الجامعية، البرهنة ــ النقض ــ الحاجة ــ إتقان الثرثرة ــ طرح الأسئلة التي لا أجوبة لها. قبلاً، لم أطرح سؤالاً جادًا:

كيف أحيا؟ اليوم، عندما طرحته شعرت أن نهايتي حانـــت، وأني أصبحت مخيفًا.

أشعر الآن بنزف شديد، فاعليتي تكمن في الانغماس الصميمي بالواقع المادي الذي لا يحتمل التأويل بالقدر الـــذي لا تحتمل ممارسته التأجيل، علينا أن نغوص في الحياة حتى الغرق من أجل أن نعبر من جانب النهر إلى الجانب الآخر.

مثل هذه الفضيلة بعيدة عني، أنفقت حياتي هباء، في الثقافة يُقتل الزمن، يموت بين السطور، في الابتعـــاد عنهـــا يدب الفساد في الدماغ فيُحسب المرء ميتًا، من أجل ماذا أنمِّي دماغي، أطعمه التاريخ، أغذيـــه بالحكايـــا، وألجمـــه عـــن الحاضر؟ العملية خاسرة، لا مجال للربح مع الذكاء، الإنسان الأول كان سعيدًا لأنه لم يكن بعقل، السعادة منفية من عالمنا، مشكلتي غير قابلة للحل، قبل أيام كنت أقـــرأ "ألبيركـــامو"، أدرك بعض الحقيقة ذلك المجنون، لم يرد أن يعطـــي قيمـــة لأحد، تحلل من كل شيء، إني معه، مع الموت، مع النهايات المفجعة، العنيفة، العنف: القيمة الوحيدة التي يجب أن تســـود الوجود، موت "كامو" لم يحقق خلاصة، مكوناته التي دخلـــت التربة كعناصر ستغذي النبات وتخصب الأرض، يا لكـــاموا

المتمرد، يعود رغمًا عنه إلى جسد الأرض، يطلع مع النبات، رفض البشر لأن ذراته التصقت بالتربة، الحديد، النحاس، الفحم، الأزوت، هذه العناصر لا يمكن لها أن تنفصل عن أمها الأرض، إنها اللعنة الأبدية: نستقل عن الآخرين بإحساسنا، ونتحد معهم بذراتنا، من يدري! تعساء؟ هناك من يبشر بالخير: من يعقل يكف عن الحياة سيكون هذا مصيري بعد أن أنتهي من ثرثرتي اليوم. لن أموت ميتة "كامو" ــ لن أختلط بالتربة ــ كيف؟ حرق؟ لا. أحبس نفسي في غرفتي الرطبة المظلمة حتى أهتدي إلى الحل؟ الاندماج المقيت يسبب لي ألمًا هائلاً، أحس بقلبي ينقبض كالطَّابة التي أفرغت من الهواء، أمي التعيسة لم تتوقع ذلك، كانت تترك لي قاع القِدْر أحُكَّها بملعقتي الصفراء العتيقة، أستخلص منها بقايا الحليب المحترقة، أمضغها بشراهة الكلاب الجائعة، داخل هذا العالم الخانق، المليء برائحة التفسخ، مللت الذهاب والإياب، أريد أن أنعتق، أن أسير بحرية، أن أشم النسيم البريء، ترى، كيف يمكن لأمي أن تنام أكثر من أربع سنوات تحت التراب؟

(٢)

كانت غيوم داكنة سود تمر بسرعة في الجـــو، أشـــجار التوت القديمة ذات الجذوع النخرة كانت ترتعد بفعل الـــريح العاتية، الجو ينذر بمطر قوي، كان الطريق الصـــغير غيـــر المعبد يمتد ملهوفًا نحو الأفق المغرق في الظلمة، كل شـــيء كان يبدو كئيبًا، يا لها من فرحة، هذا هو اليوم الذي أشـــتهيه وأتمناه: البرد لاذع ــ المطر ثقيل ــ السماء ممتلئة بـــالغيوم كأكباد حيوانات خرافية، الآن سوف أنطلق كســـجين انتهـــت مدة حبسه، إلى النهر الكئيب الذي جفَّ منذ زمـــن طويـــل، سيجري اليوم حتمًا، هناك سوف أستحم، أغتسل مـــن أدران الماضي بالبرد القارس والماء الموحل، تبًا لـــ"هـــراقليطس": لا تستحم في نهر مرتين.

أريد أن أستحم ألف مرة، كيف يمكن لـــي ذلـــك، لا شيء يهمني، سوف أخرج وليأكل البرد أجنابي كمـــا أكلهـــا ذات يوم بعيد، لم أنتظر طويلاً، عبـــرت البـــاب بتصـــميم، مشيت بهدوء، وسط الطريق، حيث كانـــت الريـــاح العاتيـــة تدفعني بقوة نحو النهر، اليابس، انتصب شعري من البـــرد،

اقشعر بدني، أحسست لأول مرة بالفرح، الأمل الذي مات بدأ يحيا، جاءتني الذكريات كسيلٍ عارم، تسلقت المرتفع بنشـــاط غريب، وقفت على هامته، لم يكـــن عاليًـــا، هنـــاك مـــلأت الابتسامة وجهي، كل الأشياء بدت أدنى مني، وأقرب إلـــيَّ، الماضي عاد حيًا، النشوة المفاجئة التي غمرتنـــي، النشـــوة المليئة بشبق لا يروي، المليئة بجنون الحياة كانت تشبه إلـــى حد التماثل نشوة لحظات مضت، كنت صغيرًا، بعد، مملوءًا بربيبة مشتعلة، يومها تركت الدار، يرشها مطر بارد، الدواب لاطئة تحت الحيطان قصدت التل، كـــان صـــعوده صـــعبًا، انحداره شديد من الجهة التي تسلقتها، الرياح في أسفله كانت تئن كجريح مهزوم، كانت الغيـــوم ســـود، تتكـــاثف بهـــول وسرعة، تلتف على بعضها، تتصادم، تتنافر، في منتصـــف المنحنى توقفت طويلاً كهارب وصل أرض الأمان، رأســـي مشدود إلى الأعلى، ولم أكن ألبس سوى بعض القطع البالية من الثياب.

كان جمال الجو مريبًا، فكرت: فراش أمـــي يظـــل دافئًا، تنام تحت أبي كمخدة طويلة، لماذا؟! بغتة، مددت عنقي إلى الأمام، انحنى ظهري أكثر، تابعت صعودي صوب قمة

التل، كانت سيول الماء الصغيرة تحفر تربته، تترك عليها أخاديد طولانية أحسست بجلدي ينفرز، هاجمني شعور مقيت بالدونية، منذ ولدت، وأنا أحمل آلامي كخرج فرس معدة لسفر طويل، ملَّ ظهري الحمل، لكن نفسي المعتوهة تأبى الخلاص، أنحني أكثر تحت حملي، تكاد تلامس جبهتي التراب، أي حمار عاقل أنا؟..

كانت القبور المتناثرة على جانب التل، موحشة، مقفرة، شواهدها عتيقة باهتة اللون، عبرت رأسي أفكار لا تُحصى، لا كيفية لها: أدبكُ عليها؟ أدوسها؟ كما أدوس قطع الروث المتناثرة خلف قطيع من العجول؟.. فجأة اخترق السماء برق ساطع، تعلقت عيوني به، قلت في نفسي: هذه الغيوم المدلهمة لو ثمة حبال تربطني بها، لو خلقت سوَّاقًا لها.. لو... لو...

بتصميم ونزق، ركضت من قبر إلى قبر، اندفعت نحو أحد القبور، ركلت ساهدته المهترئة بقدمي، وقعت على الأرض، بأصابعي الضئيلة نبشت ترابه، التقطت حجرًا وسخًا قذفت به شاهدة القبر المجاور، بيدي اللعينتين أزحت بعض ترابه جانبًا وأنا أنتحب.. شعرت بالتعب، تربعت على

أرض القبر المنبوش، كانت تلك ساعة نادرة توحَّدت فيها مع العالم، لكنها مضت، أصبحت ذكرى، الـــذكريات لا تحتـــرم الحاضر، تأتي فجأة، تختلط به، تتشاجر وإياه.. منظر السماء والبرق يسطع أخاذًا، المطر الغزيـــر، ذو الحبـــات الكبيـــرة المتفرقة كان يدك الأرض بعنف وقسوة، آنذاك، غسلت يدي تحت وابل الغيث الهاطل، تبلل شعري، ثيابي غدت قطعة من جسدي، التصقت به بشدة، ما أحلى تلك الرعشة، ليتنـــي لـــم أكبر، الطبيعة أكثر نقاء من تصورات الفلاسفة، لكـــم أفتقـــد ذلك الإحساس المتين بوجودي، كنت أصيح بأعلى صـــوتي: صب أيها المطر. صب أيها المطر.. أيتها المساء المدلهـــة، حبيبتي أنت، ملعونة إن توقف غيثك. يومها لم أهدأ، ظللت، كطائر مبتلٍّ، ينفض ريشه، أقفز من قبر إلـــى آخـــر، أقـــف كالعود فوق أحجارها المبللة، تسيل من شعري قطرات الماء، كعرق جِماعٍ رديء كنت أزعق: يا للموتَى! لا تغسل اليـــوم غيري، صُب أيها المطر، الموتى نيام، وحدي أحتضن هـــذه الجثث العفنة. كان أهلي يبحثون عني.

ــ أين هو؟

ــ في أي مكان.. من يدري؟.

بحثت عنه طويلاً لم أجده. (كانت أختي تردد).

ــ كيف يا ملعونة لم تجديه؟ لابد أن يكون قد غرق.

ــ ربما.

أنا الوحيد الذي كان يعرف أين أنـــا، كنـــت، فـــي مملكتي، مملكتي الخالدة التي لا تعصى لي أمرًا، كان المطر العنيف قد بعث سعادتي الخاصة.

حركني من جذوري، شعرت أني مدانٌ له بالجميـــل، كنت أتمتم كمتبتلٍ وَرِعْ:

" تعال أيها الشتاء الأسود، ســـوادك رمـــز الخلـــود والديمومة والكمال ". كانت النشوة تملأ عيني وأنفـــي وأنـــا أصيح ككلب يعوي:

" موتى.. أحياء، لا فرق، أنا الوحيد الواقف هنـــا ".

كنت أرقص بفرح، أُثبِّت أحـــد عقبـــيَّ فـــي الأرض وأدور دورات سريعة، عندما تعبت دنوت من حافة التل، أشـــرفت على القبور، كانت الشواهد تبدو كأشجار عارية في أواخـــر خريف عاصف، فكرت: هؤلاء الموتى يضـــعون بيوضـــهم تحت الأرض كديدان أزلية، ليس الموت غير وجـــه الحيـــاة الآخر. يا للماضي! بعضه مخيف، ذلك اليوم كنت معتوهًـــا،

الآن أشفق على نفسي لأني في حديقة الأخلاق، أعرف كيف أعطي اللفظ الحسن لحسِّي السيئ، أستطيع أن أعبر عن الماضي بسهولة وكأنه الحاضر.

يومها، بقيت على التل، أضناني البرد والتعب، تجمدت أطرافي، لم أعد أقوى على السير، في اليوم التالي كان نواح أمي، عند رأسي يخلط بصراخ أبي الموتور:

ــ دعيه يموت، يستحق الإهمال، معتوه..

ــ كفى.

ــ لن أرتاح قبل أن أجهز عليه، أريد أن أتخلص منه، هذا اللعين، لم يترك قدرًا لم يحكه، لم يترك قطعة من الزبدة لم يخدشها، لم يترك شيئًا لم يبعثره.

ــ كف عن هذيانك، أنت الآخر.

ردَّت عليه أمي وهي تدثرني بقطع بالية. كنت أرتجف من البرد، تنفُّسي أجَشّ، صوتي مبحوح، قدمت لي كأس حليب ساخن، على سطحه رشات من الفلفل:

ــ اشربْ، اشربْ.

ــ لا أريد. ناوليني كأسًا من الماء البارد، أريد أن أحس بالبرد، بالبرد يا أمي.

ــ كفَى هذيانًا، اشرب واصمُت.

بعد أسبوع مشيت، عظامي بارزة، أشبه بعيرنا الذي مات من الهزال، أسير بهدوء، أتمايل يمنة ويسرة كمخمور، لم أشف، ظللت أسعل سعالاً جافًا متشنجًا يهلكني، لـــم يكـــن لدينا ما يكفي لمداواتي " عامودا " كانت بعيدة، ظلـــت أمـــي تهيئ لي الحساءات واللبخات، تدثرني بأغطيتنـــا المهترئـــة. أحيانًا تلجأ إلى أغطية الدواب، جارنا الهَرِم زارنا على حين غرة، دهش لكوني راقدًا في الفراش:

ــ أنت! ماذا؟..

التفت نحو والدي، كله تساؤل، مرت فترة قاسية من الصمت، هبَّ أبي فجأة:

ــ ها؟ صحته سيئة أصابه برد شديد.

ــ لم يشف بعد؟! أدلك على طريقة؟..

ــ كيف؟..

ــ أذبح عنزك الحواء، أسلخ جلدها قبـــل أن يبـــرد، ضعه داخل الجلد، سيشفَى.

ــ أضعه داخل جلد العنز؟..

جرب، سيشفَى، يستأهل، غالٍ عليَّ هذا اللعين.

(٣)

لم أكن أتوقع أنني سألبس جلد عنز، كان عليَّ أن أقاوم، لست دودة، لكن من يهتم بي، لو كنت قادرًا أن أفقأ أعين الآخرين، كنت ضئيلاً، إحساسهم بي كان أضأل، أهملوني كعانس قبيحة، دسوني في الجلد دون رغبة مني، الحياة لا تقوم على الاعتبارات الذهنية، يلزمنا العمل، يظل القول كالمرأة الثرثارة، دونما نتيجة. دخلت الجلد، جلد عنزي قسرًا، عندما كانت حية، كانت رمزًا للخير والعطاء، شربت من حليبها الأبيض مرات لا تعد، أكلت من سمنها القاطع كثيرًا، " أصابتني بذات الجنب والرئة " سبَّبت ذبحها، لم يسمح لي جارنا بتناول اللحم، سمح لي بالحساء فحسب، مرق اللحم كما أثبتت الكيمياء الحيوية، اليوم ليس إلا بولاً ممدًّا، كنت أحسو المرق وأنا منغمس داخل الجلد أراقب الآخرين وهم يمضغون لحمها بشراهة، أثارتني يدا جارنا وهو يفتت رأسها بسهولة، مضى عليّ يومان وأنا داخل الجلد، لكأنهما أعوام لا تُعد، فقد الجلد مرونته، يبس، هزلت أكثر، كان العرق يتصبب مني، حرارتي لم تنخفض، سعالي ازداد جفافًا

وخشونة، حالتي ازدادت سوءًا، لم ينفعني ذلك الطب، أخيرًا خرجت من حبسي الذي وضعت فيه قسرًا وأنا أقــرب إلـــى القبر، عادت أمي إلى النواح من جديد، مات أخي الأكبر قبل سنة، رمته فرسنا في غمرة سباق مجنون، خافت عليَّ، آخر الليل عاد والدي، من غمرة السبات أيقظها، كنت في شـــوق لسماع القصص القديمة، اعتدت عليها منـــذ ســـنوات، لكـــن أصواتهما كانت تأتي هذه المرة خافتة، حزينة.

ــ أوف.. انهضي هذه هي المرة الرابعة أناديك.

ــ بلى ماذا؟.

ــ كيف هو؟..

ــ الصغير؟..

ــ أحسن من ذي قبل؟.

ــ لا.

ــ لا؟..

ــ أسوأ عمره في خطر، يذهلني عندما يئن، حـــين يأخـــذه الرقاد يشخر كثور ذبيح، اعمل شيئًا.

ــ شيئًا؟ إن كنت مصمِّمةً علَى.....

ــ بلى، بع لحافنا الأحمر، خذه أرجوك.

صُب يا مطر، قطراتك هذه التـــي تطـــرق الأرض بعنف وقسوة، تبعث الرعشة في نفسي، تمامًا، هـــي نفـــس القطرات القديمة التي أنامتني في الفـــراش طـــويلاً، لســـت أدري: هل من خلاص لديك؟ أغسل دَرَني القذر، أبعد عـــن نفسي الهموم السود، أبعدها يا مطر. أين كل ذلك الماضـــي البعيد، أي حمَّال كنت؟ الآن وأنا أجلس في نادي الجامعـــة، أشعر بالغبطة لكأني أمسك حياتي بين كفي الملـــم الماضـــي لحظة، لحظة.. هذا هو، الوقت عصـــرًا، الغيـــوم رماديـــة متسارعة نحو الشرق، الريحة باردة رطبة، الوجوه حـــولي كئيبة، المطر يهطل أيضًا، حباته ككرات رصاص مائع، أنه العام الثامن والستون، لكم يبدو الزمن قصيرًا، لكأنه لا يمر، لا يمر قإطلاقًا، منذ أكثر من خمسة عشر سنة بعنـــا لحافنـــا الأحمر، ذهبتُ ووالدي، امتطينا حمارنا الأشـــهب، "عـــاموا" كانت تنتظرنا كعروس خجول، شدَّ ما فرحتُ بلقائها.

كان النهار بطيئًا لزجًا يحوي الموجـــودات بحنـــان، والوجوه حارة حية، مختلفة، كالســـنابل فـــي حقـــل قـــارب النضوج، كانت الأشياء تخيفني، كأنها أشباح، كنت أحسب أن كل شيء يتحرك من أجلها، لم يكن لديَّ موقف ما، كنت في

طور التكوين، الآن حيث أصبحت جامعيًـــا، نظرتـــي إلـــى الأشياء ازدادت سوءًا، فقَدَ كل شيء حركته، أصبح السكون المتلفع بالحركة هو الكون، يومها فحصني طبيب بدين، يلبس نظارة رمادية همس في أذن والدي.

ــ مصدور.

ــ ها..؟

ــ يحتاج إلى وقت طويل ليشفَى.

ــ ها؟ كيف؟.. ألست طبيبًا؟ لماذا جئناك إذن؟..

بلى.. المرض يلزمه فترة من الزمن..

ــ ها؟ حتى يشفى، يشفى؟.. زين.

عدنا إلى البيت، اشترى والـــدي خمـــس تفاحـــات، وضعها في حضني، طوال الطريق كنت أضـــرب بعضـــها ببعض، أفركها واحدة تلو أخرى، تعب الحمار، كنا نركبـــه معا، بدأ سيره يتباطأ، كان والدي يغني بصوت مرتفع، كـــان الطريق الترابي يتلوَّى بين الحقول البائدة بالظهور، الوقـــت آخر الشتاء، الزَّرع قد صبغ الأرض بالأخضر القاتم، أهـــل القرى خرجوا يشتغلون، كانت الحركة مستمرة دونما مردود، الكل يتحرك دون غاية، كان الملل، كما أدرك الآن، يحـــرك

هؤلاء، القروي يملك وقتًا ففارغًا، والحيـــاة لا تملـــك إلا أن تكون ملأَى، كانت الحركة غير المنظمة، غير الهادفة، تملأ أرجاء القرى، الرجل يخرج من بيته يمر ببيت جاره ثم ببيت ابنه ثم ببيت المختار. ثم يعود إلى البيت ليسأل زوجه عـــن موعد الصلاة، يقف بوجه داره، يرفع رأسه نحـــو الســـماء، يحمد المولَى، يشكره، ثم يصلِّي، بعدها يبدأ بالسير، إلى أين؟ لا أحد يدري، لا أحد يملك هدفًا، كل منهم يســـير، يثرثـــر، يسأله عن حال الدواب، يختلق الأحاديـــث المُملَّـــة المُعـــادة، يُماحِكُ في أسعار التبن، وحال المزروعات، يناقش في الدين والبطولة، تختلط اللهجات والعبارات، تكلح الوجوه وتـــرقص دالة على حالة الفراغ الرهيب، الفراغ الذي يشمل كل شيء، عادة يجتمع الناس دون مواعيد، يتناجون:

ــ كيف حال الزرع هذا العام؟..

ــ جيد، ألم تره، إنه أحسن من العام الماضي.

ــ بلى رأيته، أنت كيف تراه؟..

ــ قلت جيد،

ــ يبدو أنك تفكر منذ الآن بالحصاد، سيكون موسمك رائعًا، تحصده بالآلة؟

ــ بالحصَّادة؟ أنا بحاجة إلى التبن.

ــ تبن؟! بإمكانك الاستغناء عنه، أطعم غنمك شعيرًا.

ــ ليس لها، أريد أن أبني دارًا لابني، أزوجه وأخلص، مللتُه، ملَّت القرية منه.

ــ مصيبة، هذا الزمان مصيبة، أعاني الأمرين من ابني، ابنك؛ أفضل، ابني طالب مدرسة.

هكذا كان الحوار يعاد دون موضوع، الأبناء المساكين كانوا دائمًا عرضة للذَّم والسّخط، يبحثون عن الجنس، يتبادون فيه، فتيان في مقتبل العمر، تمامًا، كزهرات ربيع خصب على سفوح غير مرعية، الحسد الممزوج بالأسى لدى الآباء يدفعهم إلى تقييد أبنائهم بالزواج المبكر، ثم طردهم من البيت، شُفيت آنذاك من مرضي الجسدي، لكن حالتي النفسية، كما أفهمها، الآن، لم تتغير. أحس بالأسى، مشكلتي تقلقني، لا أرى وسيلة للخلاص سوى أحد أمرين، الجنون، أو الانتحار، كلاهما حَسَن، أتساءل بمرارة: " من هو عدُوِّي؟ أي شيء في العالم يفتح فمه المَرْعُوط ليبتلعني؟ " أشد الأسئلة مرارة، الأسئلة المطروحة دون وجود عيني لها، أو دون جواب عيني عليها، بالنسبة لي تبدو الأمور

محلولة، كالطريق الواضح: الدمار، هذا كل ما يخطر لي، لا أريد أن أعقد الأمور على نفسي، لا أريد أن أعطيَ الأشـــياء أكثر مما تستحق ولا أقل مما تستحق، ذلك ليس بيدي، كـــل شيء يأخذ قيمته حتى أنا، لكن قيمتي، لن تتحقق إلا بالتحرر، وجودي الاعتباطي والقسري معًا يؤلمني، كـــدخول ســـكين حادة في أحشائي، أتفلسف؟ لا مناص من ذلك، الأمور إما أن تحل حلاً ناقصًا دون فلسفة، أو أن تحل حلاً مُعقـــدًا معهـــا، الحل الصحيح لم يُعرف بعد، العُقَد تملأ ذاتي، أحس بنشـــوة هائلة كلما تشابكت أموري، أمتلئ ســـعادة، لأنـــي أحلهـــا، أحاول، أعمل، أشعر أني أريد ما أعمل وإجابة ما لا أعمل، كلمة أريد لا يصح استعمالها، كيف أعرف أن ما أريده هـــو ما أريده حقًا، إني يائس، لا أريد أن أؤكد مذهب الشك، أريد الأصالة الخاصة بي كشخص لا سبيل إلى ذلك؟ حُكِمَ علـــيَّ بالسلب؟ نعم ولا، معًا؟ ما يجب أن أعبـــر عنـــه باســـتمرار كصفة تخصني: لا أملك نفسي، ببساطة، لـــم أتحكـــم فـــي طفولتي، وجودي لا يقابل أنه يذوب، بَسّى؟

هكذا أدلف نحو القطاف، قطاف المفاهيم بعنوة، أدفع، ثمة وسائل خلفي تدفعني باستمرار، إلى أين؟ ليس إلى غايـــة

ما، في الحياة لا وجود للغايات، الوجود للاتجاهات، الأمـــور الذهنية تقضم بساطة ولذة، تقضمها أنيـــاب الحيـــاة الحـــادة المشكلة من الآخرين، أظل أتابع التقدم تحت تـــأثير القـــوى الخلفية، لا أملك من كوني أنا شيئًا، صحيح ومؤلم معًا، ذلك ينفي قيمتي كوجود أو وجودي كقيمة، مشكلتي التي أواجهها معقدة، لأني مدفوع باستمرار، يبدو كل شيء مختلفًا تمامًـــا، كل ما أعتقده مرفوض، الرفض هنا ليس هربًا، إنـــه تحـــدٍ لأعماقي، لذهنيتي التاريخية المتحطِّمة على صخرة الحيـــاة، إنه مواجهة المسائل التي تتطلب المواجهـــة مـــن الأعلـــى، أرفض تفكيري، أحكامي محصِّلة القوى التي تدفعني، أغسل ذهني؟ أعود مرفوضًا أنا، حق، كل شيء يتقرَّر، ولأنه يتقرَّر دون مشاركتي، أقنع نفسي أني شاركت، أتردد دائمًا، خدعة كبرى ما أعمله دون تردُّد، ضياع للوقت، ما قيمـــة الوقـــت بالنسبة لي طالما أنني أنفذ فقط، أنفذ ما لا يخصني، طـــرح السؤال، هكذا يقتضيا لإجابة، هو الوقت الضائع لكنـــه يهـــم الآخرين، الذين هم ورائي، القوى التي تدفعني دون توقـــف، بالنسبة لي التوقف تمرُّد، رفض بالنسبة لهم، هذان هما وجها القضية، الواجب أن أحافظ على تسارعي الحركي، المطلوب

أن أنفذ حتى لو كانت عيوني مغمضة، التنفيذ هو المقصـــود، الحرن في منتصف الطريق مُميت، دماغي مملوء بالواجـــب والتضحية والحب والخيـــر والعمـــل، اقتنعـــت أن رغبـــات الآخرين تخصهم بالقدر الذي لا تخصني، هكذا أستخدم، هكذا أدفع، هكذا أنفذ، أبله؟ صحيح. وقذر بقدر واحد. يا لها مـــن لعبة، لعبة غير نظيفة، ليس ثمة لعبة نظيفة في ملعب الحياة، القذارة طابع الأشياء العام، كل شيء قذر، ومخيف معًا، لكنه ليس مرعبًا بقدر ما هو دنس، إنه مرعب لأن النتائج تخصهم تخص اللذين يقومون بمهمة الدفع، تبًا لي، طاقاتي تُهدر دون اقتصاد أو خوف بنفس الوقت الذي تهدر فيه دون جدوى أو تخطيط، هل أستمر في هذا السبيل؟ مـــا نتيجـــة كـــل هـــذه المناقشات؟ قديمًا جاء سقراط، ابن القابلة النذل الذي أعتقـــد أنه المولد الأول للعقول، أحمق، كـــان يعتقـــد أنـــه ســـينقذ الآخرين.

لم يدر أن المجتمع مريض جدًا، في حالة بين الموت والحياة، قال الأحياء يشبهون سكان كهـــف مظلـــم، يـــرون ارتسام الأشياء، الذين يقطنون الكهف المظلم ميتون، غبـــاؤه حمله على الاعتقاد بكونه مولد العقول، لم يـــدر أن العقـــول

عقيمة لا تلد، حين جاء التعيس أفلاطون امتد الضياع عارمًا كالسيل، هائجًا كبحر عاصف، كنار مجوسية لم يكن ثمة وسيلة لإيقافه، تمامًا، كالمطرقة الهائلة التي تنقض على علبة كبريت، شقاء، الإنسان شقيٌ بالفطرة، السعادة، ذلك الوهم الكبير الذي حلمت به زمنًا طويلاً، اكتشفت، أنا الوحيد الذي اكتشف ذلك، إنها غائبة دومًا، إنها القيد اللامرئي، الذي يغُلُّ الدافع الماورائي، أنا أَغُلُّ بها أيضًا، إننا مهيأون لأن نركض وراءها رغم أن وجودنا مناقض لها، نشعر دومًا أن ثمة شيئًا ما أطلقنا عليه اسم السعادة سيأتي غدًا أو بعد غد، هذا الشيء جعلنا منه غاية، لأنه غير موجود، هذا اللاموجود هو الشيء الوحيد الذي يمنح صفة الوجود بحق، ثم نُدفع نحن كأحياء للنضال بغية الحصول عليه، إنه صخرة "سيزيف"، لا يمكن أن تستقر في القمة، ولا يمكن لسيزيف إلا أن يعيدها إلى أعلى، الحياة، لا نفيها، تتطلب ذلك، السعادة، لو كانت موجودة فعلاً لحصلنا عليها، ولبدا كل شيء بحجمه الطبيعي، كنا سنبصق على بعضنا، كانت اللعنة ستحل، الحجم الطبيعي للأشياء مخيف، مذهل، محطم للقلوب، الإنسان عندما يكون سعيدًا، متفردًا، متوحدًا، لا يمكن أن يضيف إلى ذاته آخر،

السعادة تقتضي الهيمنة الروحية التامة على الحدث، ولأن كل شيء يجري، لن يكون ثمة هيمنة، ولو لحظة واحـــدة، أيـــة حماقة دفعتني إلى أن أغرق في تفكيري السيء إذن؟ الدقائق تمر، المطر الذي أثار كل هذا الجدل اللامجدي بدأ يخفُّ، يا إلهي! كم هي جميلة رائحة التراب المَمْطور، كم هو جميـــل منظر الوحل الذي يلتصق بأكعب أحذية الفتيات، هيـــه! خُـــذ هذه، إنها تقفز كالطَّبْيَة، يا لها من حمقاء ، تعتقد أن التصاق بعض الطين بحذائها سيفسد أناقتها، إنها لا تحـــس بجمـــال الوحل، أفسدها التمدن، لو قذفت بنفسها الآن وسط الطين، لو تمرغت به لأرعبتني، إنه أنقى من أعماقها الدنسة، تف..

وهذه تبدو مذهولة تمامًا عن نفسها، تعلقت نظراتها، الشديدة النفوذ بالوحل وبقع المياه، نظراتها محبوسة ضـــمن عالمهـــا الخاص أجمل العوالم هي العوالم الداخلية، يسكنها الآخـــرون دون حيز، نحرك القاطنين فيها كما نشاء فكرتُ.

الأجدى أن نظل نخاطب أنفسنا كغرباء، دومًا، لنظل نشعر الثنائية.

(٤)

سئمت يتوقف، لابد أن نغادر المكان حالاً، الغروب يحل بقسوة كلحظة الموت، أفكاري السُود التي تتسابق في أعماقي تجعل الجلوس لا يُطاق بعد، عليَّ الآن أن أسير في شوارع دمشق الجميلة، الأشجار العارية على ضفتيها تأخذ منظرًا حزيناً كوجه شيخ تجاوزته الحياة، دمشق تبدو مغسولة رائعة بعد المطر كمتسولة خرجت توًّا من حمام، أعرف كل حجر باهت اللون في شوارعها، مهنتي عَدُّ حجارة الأرصفة، أنا ابن الأرض، والأرصفة، والقذارات، الشقي، ما إن صرت في أحد الشوارع الجانبية حتى شعرت بانحدار شديد في ذهني، متى أكف عن التفكير في أعماقي البلهاء؟! خلو المكان زادني حزناً، بسرعة انتقلت إلى الشارع الرئيسي لعلَّ الزحام ينسيني همومي، الحياة الكئيبة البليدة جعلت مني كتلة من لحم، في أعماقي المروعة يسكن هموم أزلي، أي شقاء دنيوي يعادل هذا الشقاء، وهذه العزلة، كيف يمكن التخلص من كل هذا؟ لا أبحث عن خلاص الآخرين، إني جزء منهم،

لا أنكر، لكن لي حق الخلاص، سأبحث عنه، سأجد الوسيلة إليه، س.. س...

مناقشة الأمور لفظيًا شيء بسيط وهيِّن، مُسعد، لذيذ، خفيف تمامًا كالظل، يتابعك، لا يؤذيك، لا ينفعك، يظل يرافقك، تهرب فتبرِّر، تواجه فتبرِّر، تسقط فتبرِّر، حيث لا يُطلب منك حمل الحجارة، تظل تحس أنها خفيفة، كذلك هي مقولاتك، كظلك، يقف إلى جانبك، أو وراءك، أو أمامك، إنه معك، وليس معك، هكذا هي التعاليم، ظل الحياة الملتصق بنا، لا انفكاك منها، لا تفيد في شيء يمكن للناس أن يحيوا حياتهم دونها، يتحركون، يعملون، يضاجعون يضحكون، دون مفاهيم، حركة فحسب، لذا لست أبحث عن خلاصي اللفظي، سأمدُّ يدي لأتناول المِعْوَل والسكين، أريد الحركة الحياة، لن أكون ذا شأن يومًا، سأدمر كل ذي شأن إذن، يائس ربما، أعرف لماذا مُنيت بالفشل، سأمدُّ يدي نحو الجذور العتيقة والعميقة، الفتيات الغبيات أمعنَّ في الزينة، أعينهن تمتد يُمنةً ويُسرةً، يا لهن من شبقات، الجنس يدغدغهن لا يخبئ نفسه، يظهر، هو الشيء الوحيد الذي يستطيع قتل الرغبات ولا يمكن قتله، الأمور واضحة، الزحام

الشديد شيء مُسلٍ، يشدك إلى الطريق هكذا هي الحياة، زحام لا نظير له، صدمات هائلة، كل ما فيها يسد عليك الطريق، عوائق عليك أن تزيلها، نحن نزيل أحياناً ونُزال دومًا، عملية مزدوجة، منذ الصغر وأنا أزيل ما يعترض سبيلي، إنما الطريق طويلة، لا نهاية لقذارتها، أخطأت، كان عليَّ أن أترك كل شيء يتراكم، يتراكم، يتراكم حتى يغطي بعضه بعضًا، حتى يطمرني، هذا الزحام المتكوم، كالنفايات على طريق " حماه "، يأكل بعضه بخبث، ثم بقى ما أكله، الحياة الآسنة أجمل ما في الوجود، تعطيه معناه، أعرف أناسًا كثيرين قضوا، لنظافة عقولهم بُلهاء، كان عليهم أن يجربوا كل شيء تعاليم المجتمع تُميت: العِفَّة، الشرف، الأخلاق، لم يتسخوا، لم تتم أدمغتهم، التجارب خير سماد للنمو؟ ما يسمونه بالانحراف الخلقي، طريق سليم للذكاء، مأزق حرج؟ القطاف حاسم، جميل، ومُسلٍ، أن أسير دون هدف، طريق الصالحية، دائمًا مثمر، أذهب وأجيء عدة مرات قبل أن آوي إلى كوخي في ضواحي "المزة"، أعود دومًا إلى ذلك البيت الذي لا يزال يدلف منذ البارحة، السماء تهطل على السقف، والسقف يهطل على الأرضية، القطرات العكرة البُنِّيَّة تتسابق

في سقوطها، الأواني امتلأت كلها، البارحة وزعت كل ماعون عندي على أماكن الدلف والخارور، القطرات النازلة من السقف لم تتوقف حتى بعد توقف المطر، بعض الأمكنة لم أستطع أن أحميها من القطرات المُحمَّلة بوسخ السقف، تلك القطرات الهابطة بهدوء.

في وسط الشارع كان الناس يمرون بي صامتين، وجوههم مكفهرة، تساءلت، أي أسَىً يملأ نفوس هؤلاء؟! لا أعتقد أن ذكرى الهزيمة تشعلهم، الأحداث الجليلة نادرًا ما تكون موضوع ذكريات مؤلمة، الأمور الجماعية لا تقض مضجع الفرد، كل منا مشغول بتفاهة يومية، الأزمات العظيمة نقذفها إلى الخلف. نستحضرها عند الحاجة، نجعلها درعًا، نحتمي وراءها، لكنها لا تؤلمنا.

لو أن هزيمة حزيران كانت لي أو لآخر غيري، لغيرت حياته على الأقل، لكنها لنا، لأنها لنا جميعًا ظللنا كما نحن، من يبدأ بتغيير نفسه أولاً؟؟ مشكلتنا، بعدها تغيرت تعابيرنا، ذهننا لم يزل محشوًا بوسخ التاريخ، هكذا هم، إني أحدهم، لا شيء لديَّ، ليس ثمة ما يجعلني أغير هذه الآلية المستحكمة في ذاتي، هزيمة حزيران رغم كونها هزيمة للتاريخ، جعلت

منها هزيمة للحياة، كنت أتمنى لو كان المجموع يفرض على الأفراد أشياء ما. تجعلهم يغيرون حياتهم، يستبدلون أدواتهم، يصبحون أناسًا آخرين، حتى لا تتحكم العادة بأحد فيموت، لكن شيئًا كهذا لم يحدث، حتى بعد الهزيمة، أذكر بوضوح أنني يوم ١٠ حزيران، فرحتُ، ليس لأننا هُزمنا، نحن في الحقيقة لم نُهزم، بل لأننا عرفنا من نحن، وضعنا في حيزنا الطبيعي، التاريخ داءٌ وبيلٌ يُشفَى منه من يلعنه، الحياة أثمن منه نحن ناضلنا دائمًا ليسود التاريخ، الماضي، أهملنا الحاضر، الهزيمة حجر كبير هبط على صدرنا، علينا أن نزيله قبل أن نختنق هل سيتم ذلك؟ حتمًا، لأننا كأحياء لا نملك إلا إمكانية التبدل، التبدل لا يأتي إلا للمحافظة على الحياة، حياتنا مهددة، هذا الاعتبار يملؤني بنوع غامض من السرور، يحملني إلى عوالم جديدة الشمس فيها مشرقة، لا تغيب بالنسبة لما سيحدث لا يعني الزمن شيئًا، الحوادث المفجعة حياة حقيقية للناس، إنها رائعة، جميلة منعشة، الفرح يداعبنا كطفل جميل مدلل، لا يعطينا، لا نقاومه، الأسَى يقرعنا بعصاه الغليظة، يجعلنا نهرول بدل أن نمشي رويدًا،

يغير تواتر حياتنا المألوف، الكوارث إيجابية بالقدر الذي هي فيه سلبيَّة.

ما يجعل الحياة ذات معنى هوالمجابهة، لو افتقد الإنسان المجابهة لخسر حياته، رائحة نتنة خيرٌ من لا شيء، هكذا تبدو الأمور مفرحة ومحزنة معًا، إنها تتوالد من بعضها بقوة ذاتية.

ها قد وصلت نهاية الشارع، عليَّ أن أعود إلى بدايته، تمامًا، كالحياة تبدأ حين تنتهي، سأكرر هذه العملية حتى أن أذهب لأنام، مللت المطالعات أيضًا، التاريخ لا يعلم شيئًا، أرسطو، أفلاطون، الآخرون، استنفدوا كل طاقتي الروحية، أصبحت كليمونة معصورة جيدًا، يملؤني الخفوت، هؤلاء أخطر أعداء الحياة، أفضل ألف مرة لو عاشرت أحمد، موسى، خالد، ناديا، بدلاً منهم، حياتي العزيزة قضيتها مع أولئك الأنذال القدامَى، الكتب محشوة بالسخافة، كيف يمكن أن أحكم على صحة هذا القول؟ نظرية العناصر الأربعة مثيرة للضحك، فلسفة أفلاطون تعاليم إنسان مهمل، حقبة من تاريخ شخصي هزيل، أي دليل يثبت وعيي إذن؟ أين مصدر القيم؟ لا أعرف تركيب الذرة، ولا هندسة الإلكترونات، ولا مياكنيك الأجرام

السماوية، إنني أُحشَى بالمعلومات، المعلومات الميتة المدفونة مع أصحابها، كيف حدث ذلك، يا إلهي! تبقى الممارسة، ممارسة كل ما يحيط بي، وحدها الشاهد الصادق على كوني أملك وجودي، لم يتسَنَ لي ذلك، لماذا انصرفت إلى هؤلاء الأغبياء؟ صرفوني هم: المحيط.

من بعث بجسدي إلى المصير الذي لاقاه تفكيري: الموت؟ لا جدوى من وجودي كجسد، الحياة كل متكامل، تتطلب الحضور الذهني أولاً، ثم الجسدي ثانيًا، لأول مرة أشتهي بصدق أن أدخن، كنت حتى هذه اللحظة كلما شاهدت صديقًا يدخن نظرت إليه نظرة عتاب ورجا لوْ يمد لي سيكارة، الآن، الرغبة تلحُّ عليَّ كثيرًا، لا أملك ثمن علبة دخان، سأبحث بنظري عن صديق، أطلب منه لفافة، أحيانًا يُغير كل شيء مضغُ لفافة تبغ، تُولِّد التفاهة أعظم منها، الرغبات محركنا الأساسي، الرغبة الكامنة في أعماق كل منا تدفعه ليكون ثورًا، وأحيانًا، عنيفًا، قاسيًا، لاإنسانيًا، لا نعي ذلك، تعودنا أن نكون أغبياء.

حتى العالم المادي ذاتي، التفاعلات الكيميائية تؤكد ذلك قطرات المطر الناعم، التي بدأت بالنزول الآن، لا يمكن أن

تثير نفس الأحاسيس لدي كل المارة، ذلك يختلف بشكل شديد، إنه الأثر الذاتي لوجودها الموضوعي، هذه القطرات الصغيرة الهادئة تنعشني، تعيدني إلى السنة العاشرة، كنا في جبل عبد العزيز، نسكن بيتًا من الشعر، بيوت كثيرة حولنا، حلالنا خمس نعاج وعنزتان وبعير هَرِم، كان عليَّ كأحد أبناء العشيرة أن أهتم بهذا الطرش الضئيل، إلا أنني لم أفعل غير مرة واحدة، كنا نبني خيامنا في شعاب الجبل، كانت هذه الشعاب تقوم مقام سد يحمي البيوت السود من مجاري الرياح والأمطار، أحيانًا كانت الأمطار تأتي بغزارة، تجبرنا على الانتقال إلى الوهاد احترازًا من الفيضان الذي قد يأتي غفلة، في ذلك الزمن الغابر، كنت أشعر بتفوق لا يوصف، في إحدى الأماسي الجميلة، من شتاء قديم جدًا، بينما كنت مع ابنتَيِّ جارنا وأخيهما بالقرب من المضارب، بدأت السماء تقذفنا بقطرات المطر كأنها حصىً هابط من السماء، لم نكن نرتدي سوى ثياب رثة، وعباءات من الوبر الخمري اللون، قديمة مهترئة، كانت العنزات ترتجف من البرد، تحتمي خلف شجيرات البَطْمْ المتناثرة في سفوح الجبل، أما النعاج، حيث صوفها يحميها من وطأة البرد، فكانت ترعى بهدوء من

النباتات القصيرة النادرة في أرض الجبل المحجرة، بعيري الهزيل كان قد ناخ قرب إحدى الشجيرات اللاطئة على الأرض، والتي لم تُرع بعد، لكنها بدت لي قصيرة العمر، لن تعيش طويلاً، سترعاها الجمال الجائعة، قدرها، كنت يومها أهوى إحدى هاتين الابنتين، أحدثها عن مشاجرات أمي وأبي، كنا: أخوتي ووالديَّ وأنا ننام في جزء صغير من بيتنا ونترك القسم الصغير الآخر لدوابنا، النعاج والعنزتان والبعير، كانت الأيام كما أتصورها الآن لذيذة، جميلة، مُسعدة، أين تلك اللحظات الرائعة؟ حيث الطفولة تنمو، كما أشجار البَطْمْ الصغيرة الأغصان، بلا هوية، في سفوح الجبل الأجرد، كنا نحلم بالربيع القادم، لأنه يحمل إلينا البِشْر والخير والحليب واللعب بحرية، والتسابق نحو عيون الماء المتناثرة، كنا نبحث بحرارة تصل حد الإعياء عن هذه العيون، لم نكن نحن الصغار لنشرب المياه الملوثة التي تأتي عبر وديان الجبل، ما إن يتوقف المطر حتى ينبري أحدنا يصرخ فنجتمع حوله، تمامًا، كجيش منظم، ثم نبدأ بالبحث الجاد المسرع عن هذه العيون، كان كل منا يحمل في يده وعاء من النحاس يملؤه بالماء المتجمع في الأجران الصغيرة

المحفورة بفعل الرياح والأمطار في صخور الجبل، يشـــرب ويبصق، ثم يشرب ويبصق، كنا نسعل سعالاً جافًا متشنجًا، يا إلهي! ما أحلى تلك الحياة الغابرة، كان المساء يحمـــل إلينـــا الكآبة والضجر، كنا نجتمع في أحد البيـــوت بشـــكل دوري، نحن الصغار كنا نقلد الكبار، نحكي لبعضنا حكايات مشـــوقة وبطولية، أحيانًا، أحدنا يروي حكايته فـــي حـــين يصـــمت الباقون، كلهم انتباه وشوق، في النهار التـــالي يقـــص آخـــر حكاية جديدة، مَن لم يكن يعرف حكاية يرويها، يُطـــرد مـــن المجموعة، يقابل والدته وهو يحس بالخُذلان، الوالدة كانـــت، كما كنا نعتقد، الحكم الصادق على فشلنا أو نجاحنـــا، كـــان علينا أن نخترع الحكايات، هكذا كانت عهود الطفولة: لم تكن الحياة سوى صدىً صغيرٍ وبسيطٍ لواقعنا النفسي الآن أستطيع أن أصيغ ما أفكر به بلهجة فلسفية متينة، لن أفعل، في تلـــك الأمسيات، كانت تختلط أصواتنا الصغيرة الهشـــة بعـــواءات الكلاب الناتجة، يثيرها كل ما تراه، حتى الأشجار كانت تبدو لكلابنا أشباحًا، نباحها كان يوقظ الناس، كان عليها حمايتنـــا، ننام والهرير يصم آذاننا، الكلاب إذا لم تنبح لن تطعم، قـــدر الكلب، لكم حشرجت من كثرة النباح كلابنا، الألفـــاظ أيضًـــا

ظلت تحمي الناس أعوامًا طويلة، منذ الأزل ونحن نتكلم، ننبح، بالأحرى، ننبح لنحمي أنفسنا من القادمين.

هكذا، تبدو الذكريات مُحصنَّة، جريئة، ذاتية، إلى أبعد الحدود، لا نملك، لها تغييرًا، يمكن أن أقطع أحد أطرافي غير أني عاجز عن حذف إحدى ذكرياتي، إنها راسخة في أعماقي كحجر الأساس في بناية قديمة، ستظل تمتلكني كلحظة حب جسدي، إنها الظل اللامرئي الذي يلازمني، شئت أم أبيت، يا للماضي ما أسعده، الحاضر دائمًا شقي، لم نزل نذُم الحاضر ونحنُّ للماضي منذ أجيال، نتمنى أن يأتي المستقبل لكل شيء مساره، لن يأتي شيء، سنظل كما نحن، الزمن يتجاوزنا باستمرار، لا وجود له خارجنا، نحن صورته المحسوسة، صحيح، لا وجود للماضي، الأسى المُمزق ينبع من نفسي بسورة لا تهدأ، عجيب! ابنة جارنا الصغيرة ذات البشرة الرمادية التي كنت أهواها، يوم كنت طفلاً، كان لها مفهومها الخاص عن الحب والهوى، كانت تقصُّ لي الحكايات الملفقة، تطلب مني عَلَكِي، تنظر نحوي شزرًا، تغازل جروي، تزوجت وبقيت أنا كخروف فقد أمه، أنجبَتْ وظللتُ أنا كتينةٍ لا تورق، حتى فيما بعد ظلت تنظر

إليَّ نظرة بلهاء لا حياة فيها، لكنها مملوءة بإحساس يشبه الشعور بالغثيان، نفس نظرتها القديمة التي لا تحمل معنى، أو تحمل شيئًا لا يحدّد، اختلطت بمن حولها كطائر وسط سرب من نوعه، في حين بقيت أنا يملؤني النفور، إنني صورة أخرى لبعيرنا الهزيل، لم يكن يرعى، الجمال حوله تتناول كل ما تراه، إلا هو، كنت أقوده إلى البقع المعشوشبة، أضعه وسط أشجار الشيح والقيصوم، لكنه لم يكن يرعى، ظلَّ والدي يقول لي:

ــ لا تتعب نفسك، لن يسمن، إنه عفيف.

ــ لماذا؟ الإبل ترعى، بطونها كبيرة مملوءة كقِرَب المياه، أحس أنه يشعر بالغربة.

ــ عذبني قبلك، أحبه، يحمل أكبر الحمول، رغم هزاله.

ــ أعرف، أريده أن يسمن، لا يسرني منظره الهزيل، كم أتمنى لو امتلأ سنامه شحمًا.

ــ لا جدوى، من يعف لا يسمن، كن مثله إذا استطعت، اترك بقايا الحليب المحروق في قعر القدور.

كثيرًا ما يدور نقاش بيني وبين والدي، نقاش مؤلم أحيانًا، بعيري مات منذ زمن بعيد، قبل أمي، أصبحت عظامه الآن

إحدى مكونات التربة أيضًا، انتهى تحلله إلى جزئياته الأولية، هزل، هزل، ثم مات، ناخ قرب إحدى الشـــجيرات اللاطئـــة التي كان يحبها، رعاها وهو نائخ، لم تكلفه جهدًا مدَّ رقبتـــه الطويلة، تناول أغصانها بهـــدوء، أنـــا الآن مثلـــه مصـــاب بالهزال، أسير نحو النهاية، هل ثمة فرق حقًا بين الماضـــي والحاضر؟ بين الذكرى والحدث المعاش؟.. قديمًا كنت أشعر بالألم، بالثورة المكبوتة عندما يهدد عشيرتي خطر ما، اليوم ليست العشيرة ما يهمني، حلت محلها الأمة، أمتي، كما يحلو لي أنا أسميها، أتألم لها، إنها مُهددة مطعونة، هـــذا محـــزن ومفيد معًا، كل هذه الأشياء، تمتزج بي، أنـــا. ذلـــك التائـــه المرعوب من أضواء الحضارة، ذلك الجـــاهلي المعاصـــر، أتقرَّى الوجوه بعنفوان وقسوة، يا لهذا العمل المقيـــت، كـــان عليَّ أن أحدد الأمور ضمن إطارها العام، أن أمشـــي نحـــو النهاية رويدًا، ماذا أفيد من كل ذلك؟ قد أطعن، أقتل، أو أقتل نفسي، لا فرق، الأمور متراكمة، متلاطمة، تحمل دومًا ذلك النور الضئيل الهادي الذي لا ينطفئ، الحياة، ذاتها تحتـــرق كمشعلٍ أبديٍّ غير قابل للذبول، تصميمي على إنهاء حيـــاتي فعل فيه الكثير من اللاوعي، الأمور متماثلة إلى أبعد الحدود،

التماثل يفقد الأشياء فرديتها وعنفوانها ووحـــدتها الخاصـــة، يجعلني كشيء مُثار واحدًا منها، ما دام كل ذلك يجري بمثل هذه السهولة والحتمية واللارجوع إلى الوراء، فإن مصيري المحدد المنظوم سيأتي، كنت أطمح باستمرار إلـــى مصـــير أصنعه أنا، يخصني وحدي، مصير أريده أن يكون كما أريد، لا أثر للآخرين فيه، مجنوناً كنت، حاولت أن أكون محايـــدًا، محال كما أرى الآن لا زلت أبحث، تطرفي سيكون المنقـــذ، لا شيء آخر، ما أعذب أن أقاوم، أن أتخلـــص مـــن أزمـــة البحث عن الحلول غير الموفقة، كل شيء يختلف لونه مـــع الجزم، أحس الآن أن نفسي كبيرة وملهمة، سأقاوم؟ كم هـــو جميل: الموت ــ الحياة ــ الجزئيـــات، لا تُحـــل المشـــاكل بسهولة، لو كانت الأمور التي أعالجها هامة، أو غير ذاتيـــة، لكان كل حل لها مقبولاً، لكنها تخصني إلى أبعد الحدود، إنها جزء مني، وهذا يُعقِّد حلها، يعطيها الصفة غير القابلة للحل، لذا أظل أركض باستمرار من فكرة إلى أخرى دون كلـــل أو ملل، أبحث عن نفسي الضائعة في خضم مـــا تعلمتـــه، أنـــا والآخرون، تشابك لا انفكاك منه: مصير، أي حدث يجـــري في أي مكان مهما كان قصيًا يطوقني، يخضـــعني لآثـــاره،

أتأثر بها، إنني ضحية كل هذا الخلط اللامجدي، اللامنـــتظم للأشياء، أية حماقة تجعلني أليفًا. إذن؟ الجحود أفضل استجابة أرد بها على هذا العالم المتمادي في الخطيئة والخطأ، الخطأ يعم كل شيء، حتى وجودي الأبله، أحجار الشـــوارع ملَّـــتْ وقْعَ أقدامي، منذ أربع سنوات، عندما وصلتُ دمشق للمـــرة الأولى، منذ تلك الساعة الملعونة، وأنا أسير، أسير، أســـير، كل الأشياء تسير، دون هدف تسير، جئت مملوءًا بـــالطمع، الشبق يجثم في أحشائي، لا فرق، اهتمامي يشكل كل شـــيء بقدر واحد، ظمأي ازداد، تعاظم، تجمع في كل ثقوب ذاتـــي، لم يُطفأ، جرَّني وراءه كاليتيم، ذلك الظمأ القاتـــل الـــدنيس، حاولت أن أرويه، أصبحَ ظمأ حقيقيًا لا خلاص منـــه، مـــرة أعجبتني فتاة لا أدري كيف التقيت بها، قلت في نفسي، هـــذه هي إذن، تُجسِّد كل سمات الأنوثة، السواد يعني عنـــد شَـــبِقٍ مثلي شيئًا كبيرًا، إنه لون ترسُّبات أعماقي القديمة، شـــعرها كان أسود، عيناها سوداوان، بشرتها مروَّشـــة بشـــيء مـــن السواد، هتفتُ يا لجمالها البدويِّ الساحر ضالَّتي وجدتُها هنا، بكل براءة الشرق طرحتُ نفسي عاشقًا ملهوفًا، لـــم تحـــس بذلك، لم تتجاوب، كانت تريد كل شيء إلا عاشقًا، وجـــدتُ

نفسي مرغمًا أن أسلك سبيلاً آخر، في هذا العالم لكل شـــيء نمطٌ خاص، ولكل نمطٌ شيء خاص قلت لنفســـي: إذا بقيـــت نقيًا سأضيع في متاهة لا تؤدي إلى خلاص فلأشحذ سكيني، ولأمدّ يديَّ نحو أحشاء الآخرين هنـــا، أنـــا تمامًـــا كقشـــور البرتقال في شوارع وسخة، الأجواء النفسية الملائمة لـــي لا توجد إلا على الرمال، الآخرون لا يهتمون بـــي، فلأمـــارس بعض السيطرة على نفسي، أتحداهم، لذتُ بالصمت، انغلقتُ على ذاتي كدائرة رُسِمَتْ بيدٍ ماهرة، الارتداد إلى الذات خيبة كبيرة، لم نُخلَق لنُغلَق، العالم يُدوِّرنا حول ذواتنـــا، يُوصِّـــل رؤسنا بأذنابنا، أي شيء أشقُّ من هذا على النفس؟ عند أمي التي ترقد في قبرها العتيق الآن كل شيء كان هنيًا، مُسعدًا، حتى الموت لم يكن يخيفها، كنت أحبها أكثر من أبي، وكـــان أبي يحبني أكثر منها، هكذا كانت تدور بنا الدائرة، كل شيء عَدَم وعِبء على النفس، لا حلّ سوى الموت، أحيانًا يكـــون الموت نهايةً غاية في الروعة، أحيانًا أخي يكون معقولاً جدًا، الحياة هي التي تظل عسيرة على الفهم، خالية من أية ميـــزة رائعة.

الفتاة التي حاولت أن أحبها بعد أن عشقتها، جابهتني ببلاهة وبرود، تحدثنا مرَّة، كانت بعيدة جدًا، قالت بذهول:

ـ أتظن نفسك قادرًا على الحب؟..

ـ لا أدري. لماذا؟..

ـ أنا أدري؟ ما يحركك سخطٌ....، ربما وحدة.

ـ لا أدري، أنا هذا الذي ترينه، كل شيء فيَّ، وأجهل أي شيء. أشتهيك.

ـ أجل، جسدي، روحي لا، أعرف، لن تمسني.

ـ لست عاتيًا، مرة سمعت لهاث والدتي تألَّمتُ، كان أبي يجثم عليها، ثقيل، منذ تلك اللحظة وأنا أبحث.

ـ معقول، لست ما تبحث عنه، تبحث عن نفسك.

ـ أشك، أشتهيك.

ـ تزوجني.

ـ إذا أحببتك، لا يهمني أن تحبيني.

ـ أخاف، لن نحب بعضنا، أنت بعيرٌ رميتُ حملك، من سيجبرك على أن تنوح مرة أخرى لتحمله، موت لي إذا هجرتني، أنا أنثى سأظل أبحث عمن يحمل الحمل، خيبة، ها؟.

ــ لا، أعرف ذلك وأتجاهله، كنت أعتقد أنك شيء آخــر لا أنثى.

ــ ستكتشف أني كذلك، لكنك لا تريد، تزوجني.

ــ لا، أريد أن آخذك هكذا، كبعير وناقة في العراء، التقاليــد تفقدني طاقتي، ستندمين.

ــ لا يهم، سأكون زوجة لك، يسعدني.

ــ حتى لو كنت لا أقوى على الجماع؟ مقيت. ها؟

ــ لن تكون، أدرك.

ــ أخطأت! غريزتي قادتني إليك كعصا الأعمى، لم أعلم أنك تبحثين عن زوج، لن أكون.

ــ أنت هو، أعرفك، الرجولة تطفر من عينيــك كأســهم لا مرئية تخترقني، لا أجرؤ، المجتمع يضع الأنشــوطة حــول عنقي.

ــ ابحثي.

ــ غبي.

(٥)

صحيح المطلوب هو الزوج، أنا الرجل الذي أبحث عن العشق والحب واللاهوت، ما نفعي لها؟ الحياة ملأى وتحب الأناس الذين يزيدوها ملئًا، لم أكن أملك شيئًا أضيفه إليها، الانعزال ليس علاجًا، لم يحقق لي نصرًا، آخر مرة التقينا فيها، أنا وهي، ذات الشعر الأسود، والعينين السوداوين، كنت مملوءًا بشعور ساخط وكنت أتمتم: أيتها الأقدار الخبيثة، متى كان الوعي مرضًا، والحرية جنونًا؟! الخوف يملأ أجواف الناس لماذا؟! أريد كائنًا حيًا يقبلني كما أنا، لا يخشاني لا يضيف إليَّ شيئًا منه، لا يعدلني. لكن الجدران الصُمّ: البشر، لا يرحمون أحدًا، يتسابقون دومًا نحو شيء ما، يشمونه، لكنهم لا يرونه، لا يستطيعون معايرته، موازينهم معطلة، الماضي طريق الخلاص الوحيد لي، عشته قبلاً، لن يكون بإمكاني إرجاعه لأعيشه من جديد، مضى، هذا ينفي عنه أية إمكانية للخلاص، الحاضر مفعم بالسوء، يبقى الآتي، الذي قد يحمل ما لا أرغب فيه، لن أدعه يأتيك ما هو، سأمسك بزمامه، أمرِّرُه عبري كما أشتهي، يكفي أن أخطو الخطوة

الأولى حتى تتابع خطاي بعد ذلك سريعة، واثقة، مطمئنـــة، كل ما سيأتي لن يخيفني، سأنقل أقدامي وأطرق بها الأرض، بقية الطريق أجدها أمامي واضحة كشعاع من ضوء بهـــي، أقدامي التي اعتادت السير على أحجـــار الأرصـــفة المبللـــة بمطر "كانون"، لن تظل تائهة عن طريقها، طريق اللامبـــالاة شائك، أريد أن أحقد، أن ارتطم بالأرض، أن ألصق أصابعي بأعين الآخرين علَّني أفزعهم، أشتبك معهم، لا زلت أمارس الحياة كما أمارس العادة السرِّية، كل شيء بديل عن شـــيء آخر. حياتي بمجملها بديل عن حياة لم أعشها ولن أعيشـــها، إن ما لا يأتي يجب ألا ينتظر، ليس علينا أن نقبل بما يـــأتي، علينا أن نحوله إلى ما نريد، لا إمكانية للحصول على ما لن يأتي أبدًا، صديقتي التي تشبه ذئبة مفجوعة في أرض قفـــر صورة أمينة للحياة التي عشناها، كلانا، كـــل منـــا يمـــارس عادته السرية، لم يكن لدينا ما نمارســـه فعـــلاً، الطـــاعون منتشر، كنا نطمح إلى تحقيق نوع من التوازن النفســـي، لـــم نستطع، انكفأنا إلى أعماقنا، نستخلص منها صور الحياة التي حلمنا بها قبلاً، أصبحنا غرباء عن عالمنا، هذا العالم الـــذي حطم آمالنا واحدة.. أثر أخرى.. غدونا مشوَّهين من يجـــرؤ

على القول إن ثمة سوِيًّا واحدًا في هذا العالم؟ إنسان ســـوي؟ لا أعتقد، كلنا بدرجة ما غير أسوياء، إن أيًا منا يعاني مـــن الشعور بالإثم، يتمنى ما لا يمكن أن يحققه، يملؤه إحســـاس بالعجز، لكنه عندما يغدو شيئًا يبدأ بالارتداد الجبـــان علـــى الآخرين ليطالع في وجوههم الحكم المبرم عليه بالنفي.

لن يدرك أن حالة النفي هي الفردوس المنشود لأنه ارتدَّ إلى الآخرين، جعل منهم الحكم على ماهيَّته، هذا الـــذوبان فـــي الآخرين انعدام للذات الفاعلة بكليتها، انغماس لها فـــي أرذل المستنقعات، امتزاج لا انفكاك منه، ضياع غيـــر مشـــروع وسط زحام يوميات الناس وابتذالهم، ولـــع معتـــوه بالســـمو الجماعي، إنه اللاجدوى المتجسدة في جهود ذلك الفرد الذي ضل الطريق آخر الأمر.

الانعزال المتمثل في حالة الجنون: النفـــي، هـــو المســـاحة القصوى التي يمكن للذات البشرية أن تجول فيها ما تشـــاء، إنه التفرد الحق.

لا جنون؟ أمر بين ومقبول لكنه تافه، أجزم: جنـــون، ثـــورة على شيء ما، هذا هو المنطلق، ثم يبقى علينا أن ندرج نحو الهاوية التي كرهها البشر منذ الأزل: الانعتـــاق، علينـــا أن

ننعتق من كل إمكانياتنا وتصوارتنا وذهنيتنا البليدة، أن نعانى كل ما يمكن أن يعطينا إياه الانعزال عن هؤلاء الناس اللذين يذوبون كما تذوب ذرات الثلج في صباح مشمس، الانحـــلال الجموعي فناء لا مبرر له، أصبحت حالـــة تمـــازجي مـــع الآخرين تثير في نفسي حس الأقوياء، كنت أرى كل جموعي خيرًا وليس شرًا، المفاهيم القديمة بليت، اســـتبدلتها بمفـــاهيم أخرى، كل ما رأيته سابقًا حال وتغير، أصبح غيره بالأمس، إمكانية التغير تكمن في كل شيء، لكن ذاتي المرعوبة تجعل مني رجلاً غثًا، حيال جيل متراكم من الغباء والبله يمكن أن يحل اللغز؟ كيف يمكن التخلص، كيف يمكن الانتقـــال دون تعثر؟ أشعر أن العادة لم تنشأ قـــط عـــن وجـــود الأشـــياء الممنوعة، لكن عن غيابها وهي في حضني، ببساطة صريحة ومزعجة تبدو الأمور كما يلي:

أحب، لا شك أريد أن أمارس حياتي، مطلب عادل، أريد أن أحصل على كل ما يشعرني بإنسانيتي، لـــم يحصـــل شـــيء كهذا. انكفأت، كانت الأمور كما يلي:

أحب؟ مشكوك فيه ــ أريد أن أمارس حياتي، ليس من حقي، أريد أن أحصل على كل ما يلزم لتحقيق مشـــروع حيـــاتي،

ليس ممكنًا، بحثت بعنف، ارتطمت بالجدران: نفيت رغم ذلك، الزمن لا يتوقف، إنه ذو اتجاه واحد، كيف إذن تكون حياتي ناقصة بهذه الدرجة، أليس ذلك كارثة غير ذات حدود؟...

في صغري كنت أمارس الحياة ذهنيًا، لم أشعر أنني مغبون، الذهن المجرد، الذي حفلت به الفلسفة المثالية، أعطى الإنسان في عهود شقائه جنة وفردوسًا ذهنيَّين: يطأُ بقدميه الخياليتين متى يشاء، في هذه اللحظات الحرجة أحد الواقع يجلدني بعضًا صارمة، يقودني عنوة نحو الشعور بالسقوط، هزيمة "حزيران"، لا يمكن تصورها كفكرة ذهنية، كانت، إنها حية، تتبض في ذاتي كجنين مُحرَّم، في هذه اللحظات أود الاصطدام بالواقع، أجدني مُضطرًا لحذف كل ما يخطر لي، أشعر أن مثل هذا الحدث العام والخاص معًا، يجعل مني إمكانية حقة، لا أريد الممارسة البديلة، أريد أن أمسك النار بيدي، من هذا المنظور تبدو كل مطالبي صميمية، ليست حقًا، فحسب، بل هي تكريس للرد على ذلك الحدث المفجع، في "حزيران" لم أُهزم، أي منَّا لم يُهزم، هزم التاريخ، لو كانت الأمور تمارس ذهنيًا فقط، لو كانت الأشياء لا تخصنا

بقدر ما تخصنا، لتخلصت من كل متاعبي، ولبدا لي مـــوت أمي حدثًا عابرًا، يخص جاري مثلما يخصني، قـــد يصـــدق ذلك، وهو يصدق فعلاً، بعد حقب طويلة، أما الآن، اللحظة، هذا الوقت، كل ما يخصني هو لي، لي وحـــدي، لا يحمـــل همومي أحد، هزيمة حزيران تخصني، أحس بالخجل منهـــا كما أحس بالفرح العابر، وأنا أخص العالم بمقدار ما تخصني الهزيمة ويا للشقاء، لماذا أخاف من حياتي وهي علـــى هـــذا القدر من البساطة، كل ما يحدث أمامي يخصني، لست شاهدًا فحسب، إحساسي يتشربه بعنف، إنه مثير، يثيرني، يجعلنـــي أقف منه موقفًا، موقفي جزء مني، الحدث جزء منـــي، هـــذا يعني أنه اختُزن فـــي دمـــاغي، ســـيؤرقني أو سيســـعدني، الشجيرات الهزيلة على ضفاف شوارع دمشق تخصني بقدر ما تخص التراب الذي تنمو فيه، تخص كل من يراها، كـــل العشاق الذين أسندوا ظهورهم عليها يحبونها، لأنها كـــذلك، هي جزء منا، واحد من أهلنا، نحبها، نحِنُّ إليها، الدفاع عنها مقدس، اللباس الذي أرتديه ذو علاقة حسية بجســـدي، غـــالٍ علي، أحافظ عليه، هناك أشياء كثيرة أشـــد التصـــاقًا بـــي، تعشعش في حواسي، أراها، أشمُّها، أســـمعها، مـــا دامـــت

الأشياء تلج بهذه السهولة أعماقي فـــإن دوري أن أرد الأذى عنها، ما أراه بعيوني، له قدسيتها، التملك ليس الاختزان، إنه الإحساس بوجود الأشياء، كل المحسوسات أجزاءٌ لي، بعيدة عني، لكنها أثمن من أجزائي الملتصـــقة بـــي لأنهـــا أكثـــر استمرارًا، كنت أحس دائمًا أن شارع الصالحية يمثل يدي، ما إن أرى بعض الأوساخ فيه حتى ألمس كفي، أنفـــخ عليـــه، أتألم، لكأن الوسخ يلتصق بجسدي، أحس أني عديد الأجزاء، الشجرات، البعير، النعجة، البراري القصيَّة التي لم تشبع من الأمطار، الرمال المحروقة بالشمس، ثوب أخي، عقال ناقتنا الوبري، حذاء أختي الكبرى الذي بليت قاعدته من المســـير على أحجار الجبل، هذه الأشياء والأشياء الأخرى، أجزائي، ليست ملكي، هي أقسامي المتناثرة، الكلب الـــذي إنْ يحمـــي دوابنا هو الآخر جزء مني، إنه صورتي الأخرى، لـــو لـــم يوجد ذلك الكلب لكان عليَّ أن أحميها، كان يقوم مقامي، إنه أنا بمعنى ما، واجبي الاعتناء به، عليَّ إذن واجب، هكـــذا، يمكن استبدالها بسهولة، في الحقيقة، أزمتي ليست الدفاع عما يخصني بقدر ما هي معرفة موقعي، جهلي ســـلاح مضـــاد، فتاك، أريد أن أتوقف قليلاً تحت هذه الشجرة، ما لي وللمارة،

فلأفكر بهدوء وصمت، تبًا لي، صورة أمي أختي المريضة لا تفارقني، لن يكون ثمة جدوى من اللانتساب إلى العالم، الإنتساب نفسه قد لا يكون أكثر من خلاص منتظر، وقد يكون أمنية غير معقولة، الأمور النافعة تعقد الحلول، آه! لو أملك الجرأة، ليست الجرأة الإقدام على اقتحام المحيط، إنها اقتحام عوالمنا الداخلية، إنها الإمكانية التي نستطيع أن ننفذ بها بسهولة إلى الخلاء، حيث ندوس ارتباطاتنا القديمة اللاصقة بجدران ذواتنا الغبراء، ذواتنا المملوءة بالقبح كقاع مستنقعات أزلية، لنعود دون جذور، أو فروع، لا غرو أن ذلك قبيح، لكن القبح ليس سلبيًا بقدر ما هو إيجابي، إنه محرض كبير يدفعنا نحو النفور،النفور ذاته رائع، يبعدنا عن مكاننا الأول، الجمال يعني الالتصاق، الالتصاق ثبات، البحث عن الجمال يعني البحث عن النهاية، والنهايات مريعة دومًا، لا توجد نهاية مريحة، كل النهايات عبث، ليس في وسعنا الحيلولة دونه.

القبح إمكانية التفتيش والبحث، إنه البدايات التي لا تؤول إلى نهاية، لذلك فهو أمين، أقل استقرارًا وأكثر اتزانًا، القبح الهائل الذي يبرز لنا من حزيران يحثنا، يذهلنا، ها أنا أبحث

عن النفور المستمر، الزمن الذي أعـــيش فيـــه لا يعطينـــي إمكانية الاستقرار، النجاح الذي لا أزال أحلم به لن يأتي، لن أصل إليه، ليس عجزًا مني، كل ما يحيط بي لم يحقق نجاحه الخاص به، فشل المحيط يحقق فشلي، يرسي دعائمه، الفشل الذي يحيط بكل الرقاب يضيق الخناق على عنقي، التخطيات التي اعتقدت أني فعلتها لعبة مشوهة. حيـــاتي كبحـــث عـــن الكمال مأساة لا أعيشها وحدي، إن هذا الأثر الخالـــد الـــذي تعلمناه منذ طفولتنا: الكمال، سبب كل فشل عانينـــاه هزيمـــة حزيران ليست إلا شكلاً من أشكال بحثنا عن الكمال المطلق في عصر النسبية، كان الأجدر بنا، بي أنا أيضًا، أن نستعمل المعًادلات الرياضية في علاقتنا اليومية، اســـتعمال الأرقـــام يحقق لنا أمرًا واحدًا: يكف ألسنتنا عـــن الكـــلام، ويحـــرك عقولنا.

كان الأجدر بنا أن نصف سنواتنا بالأرقام بدلاً من أن نصفها بالمآثر التي حققناها تجاوزًا، هذه السنوات الضائعة ماتَـــتْ، متْنا نحن، الزمن يموت تلقائيًا، لكن حياتنا الخائبة شيء يشبه الشعور بالخجل، الزمن، هذا الخضم العكر، الذي نسبح فيه، يتلفنا، ليست أفعالنا إلا لصاقات صـــغيرة علـــى صـــفحاته

المُذبَّحة قبلاً، كيف نحكم إلصاق هذه اللصاقات عليه قبل أن نهلك؟ أية مأساة غريبة أعيشها؟. كل ما حولي يدور في كوكب من الغباء.

أتمنى أن أحقق الخلاص الفردي، أنا جزء من المجموع، لكني لا أريد أن أضيع وراءه، خلاصي قد يكون بداية لخلاص الآخرين، لكن هذا الخلاص لن يتحقق إلا بمعجزة: نبذ التفاهة، حذف كل ما بداخلي، فلأبدأ بالفعل، عسى أن يجرني شيئًا فشيئًا إلى الخاتمة المنتظرة، أبي، ذلك الرجل الكسول، لم يَحُزْ احترامي أبدًا، لم يكن يعمل، كان يجيد الكلام، يمنح أكثر مما يملك، يحب أكثر من استطاعته، كل شيء ممكن عنده، لكأن شعوره مستعارًا، لم يكن يجتنبه المحيط، كان بجانبه، لم يغضب أحد منه.

لكم أشعر باللوعة الآن، لا أريد أن أطمس في مستنقع الألفاظ، سئمت، الصمت فضيلة لا شك فيها، ويحتوي لذة الانتظار، يحمل لذة الإمكانية التي قد تتحول إلى فعل كغيوم "كانون"، كأمي التي كانت تعمل، يوم يعاندها أبي كانت تثور، ثورتها كانت تعني ليالي طويلة من الشجار، والعتاب والرِّضا، كنا لا نأكل خلالها، نظل عابسي الوجوه، قاتمي

الأسارير، كانت حياتنا جزء من رضاه أمنا، كـــان والـــدي يرضخ في النهاية لمشيئتها، عالم غريب، لكنه مشبع بالأمل، والعنف، والسكينة، والانفجار.

ذلك العالم الذي افتقدته إلى الأبد، حيث أصبح طعـــم الحيـــاة شائبًا، مريرًا، لكم أحبه، لم يعد يعني شيئًا سوى أنـــه جـــزء مني، ميت وحي، بنفس الوقت، ذلك الماضي يطـــالبني دون لغة أن أكون جديرًا به، الاختلاط الرديء لما تعلمتـــه مـــن ألفاظ يمدني بطاقة لا تقاس من أجل السير حتـــى النهايـــة، الشوط الذي أجبرت على قطعة، دون هدف، أو جدوى، هذا الشوط، أتعبني كحصان جرٍّ ملَّت حوافره طرْقَ أديمِ الأرض، أتمزَّق لألفِ سبب دون سبب، أجد نفسي مُرغمًا على الالتئام بعد ما جُرحت، الجراح الكثيرة التي أحســـها فـــي أعمـــاقي تمنحني مقتًا لا ينتهي، لكنها لا تشكل دعـــوة لليـــأس، إنهـــا موجودة تدفعني لمتابعة المسير، أجد نفسي مطالبًـــا بالحـــل، انفرادي الوحيد الجهة يعطيني نوعًا من الملل والتحفز، عشت حتى هذه اللحظة في جو لفظي بَحْت، كنت في البداية أفكـــر بالانتحار، كنت أحلم به، فكرت بالقضاء على أبي أكثر مـــن مرة، لا أزال أُصرٌّ على هذه الفعلة المشئومة، إنما، لم أفعل

شيئًا، السأم يداهمني كوباء قاتل، نحن نتجاوز ال: نحن القديمة، من خلالنا يأخذ الزمن قيمته الكلية، بمروره اللامتوقف يسكبنا صفات جديدة، يخلق منا كائنات أخرى، "داروين" الذي قال بالتطور عبقرية فذة، نظرية التطور الداروينية ليست حقيقة فحسب، إنها إدراك، تفسير رائع لمشاكل الإنسان، التطور الذي خضع له كامن في تكويننا، هذا التطور هو الذي يحملني على الامتناع عن متابعة حياتي الفارغة، مناقشة مثل هذه الأفكار لن تحل مشكلتي، لن تزيل من أزمتي شيئًا، لا أزال أسير بين بداية الشارع ونهايته، أذهب وأجيء عيوني تصطدم بما حولي ببلاهة، وجود هذه الكائنات المتبدلة الألوان، المختلفة الأشكال، يؤلمني، هؤلاء الناس الذين يمرون بي، الذين لم يحركوا فطنتي، كل هذا الوقت، هم سبب تعاستي، لا يدركون ذلك، المرء حيث اعتاد الوحدة يصعب أن يشارك الآخرين أساهم، كل منا قادر على حل مشاكله الخاصة، مأساتي تنبع من عموميتي، أبحث عن حل مشاكل الآخرين، ربما ستكون هذه المرة آخر مرة أقطع فيها الشارع اليوم، على الأقل أريد أن أنتهي من أفكاري السود لأعود إلى عالم الأشياء والواضع تفكيري واقع أيضًا،

إنه نتاج حياتي، من أين أتيت بكل تلك الذكريات؟.. لم أكن أتمنَّى، كنت أتذكر، يعني أني كنت أعيش مع واقع آخر، أكثر مرارة وأقل وطأة من الآن، إنه أقدم منه، لكنه أقل واقعية، إنه موجود في ذهني، في ذهني، أريد أن أرتد على ما حولي، آكل الأشياء بعيوني، هذه الفتاة ما أجملها، لو أنها ذهبت معي لمددتها على فراشي كفريسة شهية، لو حدث ذلك.... آه! كيف لم يحدث؟ كنت سأخلع حذاءها بيدي، أمط جواربها الرقيقة أحسر ثيابها بجنون، أدغدغها، ثم أفهق رأسها إلى الخلف، أملأ فمي بثغرها، أعض نهدها ككلب جائع، لِمَ لم يتسن لي ذلك؟.. أي خير يُرجى من متابعة حياتي إذن؟ أريد شيئًا أحتمي به، سبق أن قابلت واحدة، كانت حسب زعمها تحبني، شفتاها ساخنتان ولزجتان جدًا هذه، كانت عذبة، الفتاة، ذات الأرداف المكتنزة، هي الآن كل ما يهمني، عليَّ أن أسير وراءها، إنها أجمل فتاة في الشارع، الآخرون ينظرون إليها، تبًا لهم يشاركوني حتى في أحلامي، يا لها من رائعة، لا شيء لديَّ أعمله لماذا لا أظل أسير.

(٦)

ضُمني بقسوة، لكم اشتقت إليكَ، هكذا، حلمت أكثر من مرة أنني أرقد بين ذراعيك القويتين، أضيع في صحراء حمراء، أتنفس من خياشيمك، وأشم رائحة جسدك الرطبة، ضمني بقسوة، أكثر أشعر أني جزء منك، منفصل عنك، أعود إليك، تصور، إنني كنت أتساءل طيلة الأشهُر الماضية أن كنت سترضي، إن كنا سنلتقي في كوخنا في مدينة كبيرة، أتمنى لو كنت زوجتك لحظة واحدة، أحس أن وجودي يتعلق بامتطائك لي، أنت الوحيد الذي يشعرني بأنوثتي، حلمت كثيرًا أنني زوجتك، إن لي ابنًا منك، انظر، أترى جسدي العاري الملتصق بجسدك؟.. أي شيء أجمل من هذا؟..؟ قُل، لماذا أنت صامت، إني مدركة أن كل ما أملك هو، هذا الجسد، وأنا ألصقه بك باستمرار، أجمل المشاهد مشهدنا عاريين ملتصقين معًا، كجسم شُق نصفين، ألا ترى أن الحياة تنحصر في اللقاء، بين الرجل والمرأة، هل للحياة مغزىً آخر غير الجنس، ألم تتساءل؟. منذ شهور، منذ أول مرة قلنا فيها سنترك بعضنا، منذ تلك اللحظة، وأنا أتأمل الناس، اختار من

بين الرجال رجلي القادم، لم أحظ به، لم أعثر عليه، العـــالم غيرك لا رجولي، قررت تركك، ها أنذا أعود إليك، اكتشفت أني أحبك، لا أزال أحبك رغم خياناتك. الحب اضمحلال، لا خلاص منه، لم تعرفه أنت، حبذا لو وقعت أيها الأبلـــه، لـــو زُلَّتْ قدماك، أتمنى أن أراك مشوهًا، أحنو عليـــك، تحتـــاج إليَّ.. كيف؟.. تسمع، لِمَ أنت صامت؟..

ــ اصمتي، أفكر في أشياء أخرى غير جسدك.

ــ أحبك، لا أريد أن أسمع شيئًا لا يتعلق بي، إنـــكَ لي، لن تفلت من قبضتي، ستظل لي.

ــ اصمتي، تعلمت الشتائم، الحياة جرَّة مملوءة تحتاج إلي كسرها، لن تربطيني، أمل، أحب اللعب، أحـــب النســـاء اللواتي يشتمن الرجال، أجمل ما سمعته أذناي منك شتائمك، أصدق الكلام الشتيمة، أنا بغـــل، لا تتـــوقعي منـــي إلقاحًـــا مُخصِّبًا، أرعى وأمشي، أمارس الحب بنفس الإحساس الذي أمارس فيه التغوط.

ــ أدري، ولأني أدري أتجـــاوز، أريـــد أن أملـــك جسدك، روحك عتية، أنا الأخرى نبتة صبار لن تذوق ثمرها قبل أن تخزك أشواكها، لعنتي، وضياعك.

ــ كيف اجتمعنا؟ يوم رأيتك تحرك كل عضو فـــي جسدي، شبقي امتد كآلاف الحبال اللامرئية طوقك، لحســـت شفاهي أكثر من مرة.

التصقي بي، اصمتي، لن أشبع منك، لا تحسنين شيئًا آخر غير هذا، تكوَّري، آه.. أيضًا.

اقتربت مني بعنف، كانت عاريـــة، تمتـــد بجـــانبي، بشرتها طرية أنوثتها ملتهبة، لـــم أكـــن أريـــد الاســـتمرار بالحديث، كانت نافذة غرفتي الوحيدة. المطلة على الشـــارع، تنقل إلينا صوت الريح والمطر، كان الغروب قد حـــل منـــذ أكثر من ساعة، شجرة التين التي تتسامق فوق داري كانـــت تهتز بخفة وهدوء، كانت الريح شمالية، كان كل شيء باعثًا على السعادة، لأن الأمور تقلت منا أحيانًا، تعود القهقـــرَى، ليأتي الأسَى بوجهه العبوس كمحصلة للزمن، وحيدان، هـــي صامتة، أنا كذلك، ذهني الشَّرود لا يمكن أن يتوقف، عشـــت حياة فارغة، لا أملك إلا ذهنًا لا يهدأ، لم أنجح فـــي حيـــاتي كطالب، لم أنجح كرجل، مارست الأدب فشلت، حاولـــت أن أهتم بالفلسفة، الفشل كان نصيبي، كانت علَّتي الإخفاق، كـــل ما أضع يدي فوقه يستحيل ضده، ليس ثمة ما يسد حـــاجتي

إلى الكلام والتفكير، أدرك أن ذلك لن يقدم لي شيئًا، لكني لا أستطيع الاستمرار دونما ثرثرة، الثرثرة والنساء كانتا محور حياتي، النساء الإمساك بهن صعب كالماء، الثرثرة أسهل، لا تحتاج إلى ذكاء، يكفي أن أحرك عضلات لساني وشفتي، ذات مرة حاولت أن أحب فتاة بدت لي جميلة، كنت آنذاك في مرحلة الطفولة، صدَّتني، ابن جارنا كان يحب فتاة شهية، ساقتني غيرتي، أحببت ابنة جارنا العمياء، لم تكن ترَى، ذلك أسهل، عندما كنت ألتقي بها أمد يدي حيث أشاء، جسدها ملكي، أراه ولا تراه، لا تغضب، أجمل ما في الجنس الرِّضا، التشمج يزيل آثاره الطيبة، كانت تظل واقفة بلا حراك، تفرج شفتيها، ابتسامتها بلهاء، شبقها يعطيها سحنة مخيفة، كانت أكبر مني كثيرًا، تأتي في الوقت الذي أريده، لم تكن تمارس شيئًا، كانت مطيَّةً لي، كانت رهن يدي، كما أتصور الآن، كانت مفعمة بالحب، جسدها ظامئ، روحها ظامئة، لم يُطفأْ شيء من ظمئها ، لم تكن امرأة، كانت رُتيلاء تلسع كل ما تطوله، تلك الفتاة العمياء، كانت أول امرأة أحببتها في حياتي، بعدها لم أحب، كل النساء اللواتي عرفتهن فيما بعد كانت عيونهن غاية في الروعة، يرين كل

شيء، تعوَّدتُ إلا أُراقَب، أخاف طفولتي هي الأخرى كانت عمياء، ذات يوم تواعدنا، قلبها لم يكن أعمى عكس بقية النساء، التقينا في الزرع القريب من دارهم. كانت تنتقل بهدوء وثقة، انبطحت على الأرض، مسكتها من يدها سحبتها، جلست قربي، دفعتها قليلاً من صدرها، طقطقت السنابل البادئة بالاصفرار، كان "أيار" قد بدأ بالحلول، الشعير بدأ يذبل، الحنطة لا تزال طرية، شقائق النعمان وردية، كثيرة، حولنا، التصقتُ بها أكثر، وضعتُ يدي على نهديها، لم تتكلم، ابتسمتْ قليلاً، تململتْ قليلاً، لامس جلدي جلدها، وضعت وجهي على وجهها، قبَّلتها، تباعدت شفتاها، انتهيت أنا، ظلت هي تتململ كأفعى ضربت بشدة لكنها لم تمت، أجهشت بالبكاء، عجبتُ أنا، لم أكن أفهم شيئًا، الماضي عذب دائمًا، طفولتي كانت محرومة حتى من الفهم، شبابي محروم أيضًا، أتطلع إلى الأشياء من علٍ، لا أملك منها شيئًا، أراها لكنها ليست لي، كل ما حولي ينضج بالحرمان، أجمل الساعات التي أقضيها مع ذاتي مستغرقًا في تفكيري، لم أحتو شيئًا، لم يحتوني شيء، ليس ثمة ما يدعوني لتجاوزه، حياتي كلها لغة، أذهب إلى الجامعة، أناقش بعض الأصدقاء، أستمع

إلى الأستاذ، أمرٌ بالناس، يمرٌ الناس بي، أنام، أستيقظ حاولت مرة أن أكون مرتبطًا بشيء ما، بحثت عنه، لم أجده، لا زلت أبحث، مشكلة الشرق الأوسط كانت تستغرق نصف وقتي الذهني، أردت أن أغمس يدي فيها، أشياء كثيرة منعتني، أحس بالتضاؤل يأكلني، أحس أني آكل نفسي، أتعذب لأني غير كفؤ لحياتي، مللت كوني شاهدًا، أودٌ لو كنت مشهودًا عليَّ، شعوري قتَّال بالفراغ، كل ما حولي ينزٌ فراغًا وأسىً، ليس ثمة ما يدعو إلى الاستئناس، غربة مريعة تحوطني، وطني جريح، أنا مهدَّدٌ، جروحي تنزف بقسوة، يداي مكفوفتان، شفاهي مُطبَقة، الموت يحل في كل جزء من كياني، أشعر أن التاريخ مجرم هائل لا يمكن إثبات جريمته، عندما يكون التاريخ مُجرمًا فإن ضحايا لا حصر لها تقع انتشلني صوتها من شرودي:

ــ كنت أفكر، ما سنسمي طفلنا الأول.

ــ دعينا الآن من ذلك، تفاهة، الأطفال تملأ الأرض.

ــ ألم تشبع صمتًا؟ كل هذه الفترة لم تقل لي ولو كلمة، تعلم أن المرأة العارية شديدة الحساسية، لست ثورًا، لست مطالبًا بإنقاذ العالم، انقذ نفسك، صدئت، هل تدري.

ــ أتعذب، مطالبٌ أنا بإنقاذ العالم، لســت حشــرة، أتساءل: إن لم يكن ثمة إمكانية لأنقذ الآخرين، علام أعيش؟.

ــ أنت مريض. هل لاحظت أنَّا لم نمارس الجــنس سوى مرة واحدة خلال هذه الفترة؟ أفكارك ستقضي عليك.

ــ فكري، لو كنت كل شيء عندي لحملتــك علــى ظهري، أشياء أخرى في هذا العالم تتطلب مني الاهتمام بها، كفى غباء. كنت جائعًا، شبعتُ، ليس ثمة ما يقســرني علــى الأكل أكثر.

ــ خذني، اعطني طفلاً، لا أريد أن أفقدك. ظامئة أنا كنبتة صحراوية.

ــ ستحبين غيري، ستنجبين أطفالاً، ستصبحين أمًــا وجدة، لن أكون ذا نفع لك، لم أنفع نفسي، دعيني، لن تندمي، لا أملك غير هذا العضو، حماقة كبرى أن تظلي ملتصقة بي.

ــ خذني معك، لست أقل منك حماسًا لــوطني، أنــا الأخرى شقية، ألا تود أن أجد شيئًا ذا جدوى.

ــ مدمر أن نعثر على الجدوى، البحث عنها أفضل، أنانيتي تمنعني من إسعادك، جدي طريقًا يلائمك، لا أريد أن أقود أحدًا لست مسيحًا، يسعدني أن أرى العذاب يملأ العالم،

يظل الشقاء أعظم من التفاهة، ما يهمني ألمي لأنه يحثني، يكسبني قدرة على الاستمرار، يعطي وجودي معنىً، أنت حياة، لك مسار وغاية لا تقتفي أحدًا، كل منا يقود الظامئين إلى نبعه، تخلصي من الآخرين كما تتخلصين من حذائك قبل النوم.

ــ لست غبية، تؤلمني لهجتك، لم نجتمع لنتشاجر، أتمنى لو يُقطع لسانك، أتساءل عما يؤرقك، أعماقك ملأى بالأسى والثورة، كلماتك باردة، لكنها تطعن كالمخارز، صمتتْ فجأة، وأضافتْ فجأة:

عندما تتكلم أحس كأنني أجلس على شوك، أحتقر كل ما مرَّ بي، أتمنَّى لو كنتُ يدك اليُمنى، عندما تتكلم تسحبني إلى عالم آخر، يبدو هذا العالم قزمًا إزاءه، يملؤني إحساس بالخطيئة، أعامل نفسي، لفترة طويلة، وكأني مجرمة، تقتلني أنتَ، لا أريد أن أسمعك.. تكلم.

ــ لا تقربيني، أنا كالبعير الأجرب، العدوى تسري مني، ضللت الطريق، أنا سعيد لذلك، لا أريد أن أجده، أجمل ما في الحياة البحث، لا تكترثي..

احتقرت الحياة لأنك احتقرت نفســـك، أحبـــك، أدري أنـي خاسرة، لا يهم.

ــ اصمتي.. إذن.

(٧)

يبدو أن وجود الأشياء مرتبط بنفعها لنا، لو أُنيطَ بـــي تسيير الكائنات، لأدرت نظام الكون عكس ما يصـــلح لـــه، لجمعت الأضداد في كل واحد، إن كونًا مؤلفًا من أضداد لهو كون عظيم، الأماني التي حلمت بها دهـــرًا طـــويلاً، ظلـــت نشيطة في مخيلتي، رغم كوني فاشلاً كإنسان في مجتمع يقوم الأفراد حسب ما يحققون له، ظللت أثق بنفسي، لماذا؟ لأنـــي لم أستطع أن أفقد تلك الثقة العجفاء الفارغة التي لـــم أســـتقد منها شيئًا، كنت أقابل أقراني بشيء مـــن الـــبلادة والعظمـــة الزائفة، أقابل والدي بالتعقل والتهيب، أعامل إخوتي بشـــكل يجبرهم على أن يحترموني، لم أكن أبتســـم إلا لمـــن كنـــت أعتقد، جازمًا، أني متفوق عليه، من كان دوني، أو أهم مني، كنت أتحاشَى التعامل معه. كل شيء كان مقيدًا في حياتي، لم أحس يومًا أني طليق، الجدران كانت تحـــوطني مـــن كـــل جانب، أحببت كل النساء اللواتي احتقرنني، واحتقـــرت كـــل النساء اللواتي أحببنني، لم يكن بإمكاني أن أحب من يحبني، مركبات النقص في أعماقي كانت حواجز لا يمكن عبورها،

نهري كان فياضًا، جسوري محطمة، بيني وبين العالم آلاف الأميال، انقطاع أزلي بيننا، تضخمت أوهامي كثيـــرًا، كـــأن حياتي أسطورة، كنت هزيل الجسد، صامتًا، أفكر أكثر ممـــا أتكلم، أتكلم حينما يجب الصمت وأصمت حينما يجب الكـــلام تشابكت الأمور حتى فقدت صدقها، كل بنياني كان معكوسًـــا تصدعت جوانبه، هذه الآلام كلها، لا زلت أحملها بلا إعياء، كل الأماني التي حلمت بها دفنت في الـــزمن، واحـــدة إثـــر أخرى ظل العجر يملأ ذاتي، أشعر أني أموت تـــدريجيًا، لا شيء تحقق من كل ما تمنيت، كبرت، اقتربت من نهـــايتي، ذاتي ظلت فارغة، أفكر بحزن مريع، لماذا قبلت أن أكـــون مطية، لم أكن أريد أن أُمتطَى، أُجبرت عليَّ أن أحمل الحمل، مقيت، ماذا لو عُفِصتُ، رميت الحمل عن ظهري، لو عدت حُرًا كفرس شموص، كحمار وحشي، من يلومني؟. التزمـــت بالآخرين، ركبوني، لم يفكروا بطـــاقتي، يريـــدون ألا تطـــأ أقدامهم الأرض، ليس ذلك من شأني، ليتمرغوا هم أيضًا من يقبل كل شيء لن يحصل على شيء، ارتجفت عندما وخزني صوتها من جديد:

ــ ألبس ثيابي؟.. تأخرت.. لا جدوى منك، أتمنى لو ألتقي بك بعد سنين لأرى مصيرك.

ــ نلتقي غدًا.

ــ لتصمت؟. أكاد أنفجر، لست حاقدة عليك، يسرك ذلك، أتساءل: ما يثيرني فيك، لو كنت أُنثى لصرت عانسًا، لا تتقن الخداع، صراحتك مزعجة.

ــ أتمنى أن أكون مزعجًا حقًا.

ــ اشتر بوقًا وانفخ فيه، الحياة لا تقوم على إيلام الآخرين، بنياننا لا يمكن أن يعمر على أنقاض الناس، احتملتك لأنني كنت مسرورة بك، أعرف أنك أعوج، لا أريد أن أُقَوِّمَك، لا يهمني، دربك سنسير عليه، ستظل عزيزًا، أريدك أن ترتطم بالجدار علَّك تفيق من سباتك، لم تحبني، أتمنى لو أتخلص منك، أنا ذاهبة، تريد شيئًا؟..

ــ لا. لا شيء عندك.. الآخرون امتصوا كل خيراتك، حتى نسغك جفَّ، احتضنت الغرباء فلسعوك، أفاعي سامة هؤلاء الناس، لو كنت فرسًا لنفقت سريعًا، اذهبي، كل مرة نمارس فيها الجنس تظهرين أكثر جمالاً، وأصغر سنًا مما أنت. لست أدري لماذا؟...

ـــ حقًا؟..

كانت بي رغبة عنيفة للمسير في شـــوارع دمشـــق حيث رذاذ الغيث لم ينقطع بعد، لكم تمنيت أن يســـتمر فـــي هطوله، إنه ينعشني، يبعث بي أملاً كئيبًا وحسًـــا غامضًـــا، الماضي لا يزال حيًا! كنا نحيا من المطر، زرعُنـــا يشـــرب منه، دوابُنا، تشرب منه، نحن نشرب منه، ننتظره بلا صبر، منه حياتنا، به يعود اتصالنا مع الأرض، إذا تـــأخر يجتمـــع الناس من كل الأعمار والأجناس، يتضـــرعون، رءوســـهم مرفوعة نحو السماء، عيونهم متعلقة بالغيوم الخفيفة التي تمر دونما اهتمام بهم، يبتهلون لكي يأتي المطر، مـــوت لهـــم أن ينقطع، كانوا يقطعون الدروب المقفـــرة، يحملـــون الأتربـــة اليابسة، يذرونها، يمرون من مكان إلى آخر وهم ينشدون:

يا أم الغيث غيثينا.

بلى بشيت راعينا.

راعينا حمد أقرع.

له سنتين ما يزرع.

المطر، صديق طفولتي، الوحيد الذي يجعلني أكثـــر سعادة مما أنا، وأكثر أسىً مما أنا، أحس أن الأرض ســـعيدة

بهطوله، يسعدني أن تكون التربة مروية، أحب الأرض، مـــا أجمل المطر يغسل جسدهما، عندما خرجتُ، بدأت أرتدُّ إلـــى ذاتي، أحاسبها: كيف أيها الشقي النذل.. تتمتع بجسد امـــرأة، وثمة أناس يموتون من أجلك. تعد أحجـــار الأرصـــفة إلـــى متى؟؟. لك عليك تعرف كل شيء، لماذا لا تقوم به؟!.

(٨)

كان المساء قد حل منذ فترة قصيرة، أضـــواء النيـــون الخافتة كانت ترمقني ببلاهة، الشارع كان خاليًا من المـــارة، المطر قد توقف منذ لحظة، الغيوم تفرقت بســـرعة، النـــاس الذين توقفوا عن المسير من شدة المطر بدءوا يتزاحمون كما تتزاحم الأفكار داخل رأسي، هـــذا القحـــف محشـــو دائمًـــا بتفاهات، تختلط، تتمازج، غير متناسقة، التنافر طابعها العام، كنت أريد أن أمسك زمام الأمور، أن أحقق كل ما يعِنُّ لـــي: أن أكون مناضلاً، سياسيًا، رجلَ مجتمعٍ فـــذٍ، تحبنـــي كـــل النساء، لا يمتنع عني شيء، شـــاعرًا، أجمـــع المتناقضـــات بسهولة، لكني لم أكن أعمل شيئًا لأحقق بعض مـــا أتمنـــى، كنت أفكر فحسب، أُصبتُ بداء التفكير، لـــم يكـــن بإمكـــاني مباشرة أي شيء، تعطلت كل قدراتي علـــى العمـــل: كنـــت أتمنى، أرجو، لم أتجاوز حدودي، كل شيء كان مرتبطًا بي، ولم أحقق شيئًا دون مودة ظللت أجـــوب المدينـــة، قـــدماي تطرقان الأرصفة بحياد، لم أكن مع ذاتي، ذهني كان خـــارج رأسي: " الأمر بسيط، لو كان غيرك، لكنه أنت، أهتم بك لا

لكونك أحدهم، لأنك أنت، ليس لهذا أيضًا، لأنك تحمل شـــيئًا ما، وأيضًا لأني أحبك، على أن أعترف بعجزي، لو لم تكن غاليًا عليَّ لما ساءني الأمر، لـــن تـــدمر نفســـك فحســـب، ستدمرني معك، إني لا أهتم بك لم أهتم باهتمامي بـــك، لـــو كانت مثل هذه الأمور تربطني بالآخرين، لكنتُ غيري الآن، أهم ألف مرة وأكثر جدوى، أعظم الأمور شناعة خيبة مـــن نحب، لا تقتل نفسك، أريدك أن تحيا، حياتك لم تعد تخصك، يوجد من يحبك، أنت مشروكٌ الآن، عليك أن تعامل نفســـك بشكل آخر لو لم تكن أمك هي، لما راعني الأمـــر، شـــيء مشترك يجري بيننا، كلانا تهمه أنت، لو كنت لا أكثر لكـــان الأمر سيان، لكني أحترمك، احترامي لك يفقـــدني حريتـــي، تحوطني وأنت لا تدري، لا تزال غضًا، هناك من هم أنضج منك، لا تعي، كل شيء يؤوَّل على الدمار، لا يروعني ذلك، لا تزال صغيرًا، أبله، الحنان الذي يملأ ذاتي، حناني الـــذي ستقبره معك إذا فشلت، سيجرني نحو الأرض، سوف ألحـــق بك، أحنو عليك لأني أرى فيك شيئًا مني، أســـعى لإنقـــاذك لأني أريد جذرًا مني ينبت عميقًا في التربة، أحس بانتهـــاكي كفرد إذا شعرت أنه لا وتدَ لي، الزمن يؤلمني كضربة قاسية

على رأسي، لا تريد أن تطيعني؟. حسنًا، اقذف عقلَك، استمر في عنادك، بلهك يؤلمني كسكين حادة تمزق أعماقي، حماقتك هراوة تدق رأسي، تطرقني باستمرار كما يطرق الحداد قطعة من الحديد الساخن، يا لك من أحمق، لو كان حسُّك سليمًا لما تصرفت هكذا، لو كان حسي سليمًا لما توقعت أن أرى فيك شيئًا، أخطاؤنا قاتلة، تستهلك وقتًا، ذهننا يثبط بها، يرتبط، لا نعود نعرف أنفسنا، أحيانًا نعمَى، نقع في مستنقعات لزجة مخيفة، حماقاتك كحماقاتي غير متجانسة، أحبها، لو كان ثمة ما يهمه أمرنا لتغير كل شيء، نحن نواجه الأشياء دائمًا وحدنا، نؤخذ على حين غِرَّة. يضحك علينا الآخرون وهم يؤخذون أيضًا، الحياة التي مُنحت لنا حطمتنا، لا أدري كيف؟.. لو كانت أمك غيرها آهٍ.. لو كانت أخرى، لبصقت عليك، ترقبني، أحس بعيونها، أعرف متى ترمقني بنظراتها الحزينة، تعتب عليَّ، لا أقوى على تحمل عتبها، ما ذنبي؟ لو أعرف كيف أراها، أبثها شوقي، حياتي دُمِّرت بعدها، الأشياء فقدت صفاتها، لا تراها أنت، العيون الأخرى عمياء، تنظر ببلاهة، ألف مرة أحسست أن الآخرين خُرس، تكلموا، أصغَيتُ باهتمام، أصخت السمع، أغشية الطبل في

أذني كانت متوترة جدًا، اصطدمتْ بها حبيبات الأصوات، لم أسمعها، امتلأت ألمًا وحقدًا، جاء صوتك أنت على حين غرة، تنبهتْ خلايا دماغي المحشوة باليأس، ذهلت، فرحت، لا أريدك أن تتحرر مني، أنت أحد مكوناتي، لا يهمني ما سيقال، العالم عندي ميِّت، أهذي؟! ربما، أريدك أنت نبتة خضراء في قاعي القاحلة، عيوني ملَّت الرمال، الاصفرار لون الأشياء كلها، أنت لا، كيف يمكن أن أمسك بك، أضمك، أعانقك، امتصك كشفاه عشيقة شبقة، أعضك، لو كان للأمور أكثر من وجه، أو أكثر من اتجاه، لوجدتني كالحوت أشرب الماء بهدوء وثقة واطمئنان، لكنها أيها الأحمق الصغير، لا تملك إلا وجها واحدًا، واتجاهًا واحدًا، نفسي الولهَى، كنفس رضيع جائع، تبحث عن حب أزليٍّ بشراهة لا تعرفها أنت، الأيام الأخيرة، هذه الأيام التي أعيشها، لا تحمل لي غير وحدة قاتلة، أنغلق، ألتف على نفسي كذيل كلبنا "فدعوس"، منذ الطفولة وأنا أمد يدي بصدق، كل الذين لمسوها كانوا دنسين، السواد الأعظم الذي اختزنته في جراري الهائلة، الكآبة المعتقة منذ سنين عديدة، البله الحزين الرابض في كل جزء مني، سوف ينسفح الآن، ليغمر العالم، كل العالم، بما

فيه أنت. النهاية أضحت قريبة، كل ما حولي يبدو أسودًا مخيفًا قاتمًا كثوب أمي المصبوغ على عجل، ليكن. ظل صامتًا، أتوسل إليك، تعرف عادتي عندما أبدأ الكلام، لا أكف عنه بسهولة، ثرثرتي المعتادة، أريد أن أصنع منك شيئًا مغايرًا لما صنعوا مني شيئًا لا يشبه أحدًا منهم، حتى هي، استحضر صورة أمك، الآن فتية ابتسامتها عريضة، شجاعة، تثور لأتفه الأسباب لأتفه الأسباب، أقوى وأنبل منك، حقير أنت، صغير، دنيء، إنها أنبل، أنبل مني كثيرًا، سقطت أنا، ضعت بين الزحام، التفاهة تلبسني كثوب لا يمكن خلعه، لا أريدك أن تكون مثلي، هي علمتني، أتذكر كيف كانت تسهر الأيام الطويلة، تداريك، تقطع اللقمة من فمها، تضعها في فمك. تعاني الجوع والبرد والمرض لأنها لا تريدك خائبًا، خسئت، لست جديرًا بها، أنا اضمحل، لماذا أنت؟.. من ترى الخاسر؟.. تقوى على الإجابة؟.. علام تبدِّد زمنك اغتنمه، كن شيئًا، لا يغرك مظهري، أجوف أنا، أكثر ما يؤلمني كوني عشت جبانا، لست أدري لماذا رهبت الآخرين دائمًا؟ من يدري خسارتي لا تعوض، موتي لا يحل المشكلة، كانت، لم تعد قابلة للحل، لا أملك شيئًا، بددت كل ما ملكته بإسراف

لا حدود له، أكلت عمري، أمك كصباح أزلي لن ينطفئ نوره يبهرني، أحترمها، ليس بإمكاني إلا أن أحترمها، أشك أنها أمك، أبوك هو أبوك، أمك هي أمك؟.. دنست ذكراها، ذهني الخامل الذي لم يعرف الإقدام يومًا يحركني اليوم، أتريد أن تموت؟ محرم عليك بعد اليوم تذكُّرها. مُت، عِش هذه الإرادة، اقبلها، لا تهرب أمام الرعب، قُم، الساح أمامك فاغرٌ فاه.. ينتظر الرجال، أرضنا مبتورة، تعال معي، اصعد، هذا هو قاسيون، انظر، هذه هي الجهات الأربع، الغرب، الجنوب، الشرق، الشمال، عرفت؟.. هي كانت جاهلة، لم تتعلم، أنت تعلمت، أنا تعلمت أيضًا، خلال دراستي التقيت بفتيات يتعلمن، زعمن أنهن حرائر، غبيات، عيونهن كانت تطوق الشباب، فروجهن منتعظة، يبحثن عن زوج، يتكسبن، انظر، هناك. رأيت، القنيطرة جاثمة الآن كناقة كُسِرت ساقها. اذهب إذن. سألحق بك، كلانا لا أهمية له، الناس لا يحتاجون من لا يملك شيئًا، جيوبنا فارغة، عيوننا مرعوطة، ألسنتنا حادة كشوك الكعوب الجافة، لا يرغبون بنا، الأرض أكثر حاجة لنا، مكتوبك الغبي، تسلمته منذ لحظات، جعلني

أقطع سيري في شارع الصالحية، أعود أدراجي إلى البيـــت، أكل مني أجمل لحظات العمر، تعرف ذلك؟..

(٩)

كان الوقت شتاء، شهر رمضان يقترب مـــن نهايتـــه، الفترة الواقعة قبل الإفطار وبعده مباشرة تخلو فيها شـــوارع دمشق من المارة، تصبح فقـــراء خاليـــة كباديتنـــا، الأوراق الملقاة كانت تتطاير، عبر الشوارع لا يمشي أحد غير الـــذين لا يصومون، خلال هذا الوقت القصير كنت أقطع الشـــوارع مرات ومرات، أذهب وأجيء أنظر حولي ببلاهة، يملـــؤني إحساس بالارتياح، عادة تكون الأنوار خافتة، لا مطفـــأة ولا مضاءة الباعة لم يغلقوا محلاتهم، ولم يفتحوها أيضًا، يأكلون داخلها، لا يبيعون، لا يتعاملون مع أحد، عيونهم وحدها تعبر محلاتهم، كعيون الخيول الأصيلة في ظلام دامس، تملؤهـــا الرهبة والترقب والانتظار، هذا الوقت الذي أجبرت فيه على العودة إلى البيت الكئيب أثمن من حياتي كلها، لكن الصـــداع الذي رافقني بعدما قرأت رسالته لم يكن بالإمكان احتمالـــه، ذلك الصداع ذكرني بوالدي الهرم، والدي الذي انحنى ظهره، والذي كان غالبًا ما يشكو مثل هذا الألم، أين هو الآن؟. فيما سبق كنت أعتقد أن أبي هو الشخص الوحيد الـــذي يســـتحق

احترامي، عندما كبرت تبدلت هذه النظرة كثيـــرًا، لـــم تعـــد الأمور تقاس بمدي احترامي لها، أصبح مقياسها النفع، مـــن يدرس بنتام ستيوارت مل وغيرهما لا يســـعه إلا أن يهـــتم بالمنفعة، هذه النظرة هي الأخرى تبدلت أيضًا، تبدَّلت كثيرًا آمنت أن الحياة أكثر عجزًا مني، وأكثر ضياعًا، سأنكفئ إلى داري إذن، أمتص منها الرطوبة.

ترى؟ من سأجد في البيت، داري القديمة ستستقبلني بحفـــاوة ووجد بالغين، أشتاق إليها، هي الأخرى إليّ، أعود الآن، لـــم يعد بإمكاني متابعة السير، أتساءل أين يقبع أبـــي الآن؟.. أي خباء مهتري بقية الطقس؟.. قضى عمره في رعـــي الإبـــل، يتقن السيد بشكل مدهش، تجاوز السبعين لكن حبه للمشي لم يفتر، شاخ ظهره انحنى، أصبح أضأل من ذي قبل، لكنـــه لا يزال يتابع التجوال سيرًا على قدميه، لا يؤنســـه إلا البـــر، أعماقه ملأى بشيء ما يدغدغه، نظراته تحمل قدرًا كبيرًا من الريبة، عندما يزوني بدمشق أفرح، أشم عنده رائحة أمـــي، رائحة بعيرنا الهزيل، رائحة سفح الجبل كلي الجمال، حيـــث ينبت العشب دونما حدود، في حذائه أرى أديم الأراضي التي وطئها، أتصور كل الأعشاب التي ضـــغطها علـــى ســـطح

الأرض، شقوق قدميه تجعلني سعيدًا كجروٍ اجتمع بأمه صدفة "انفق ما بالجيب يأتي ما بالغيب" كانت أنشودته الأزلية، كحداء جريح يعبر صحاري مترامية الأطراف، ظل يجابه الحياة كما يجابه كليًا كثير الهرير، ينشد الأشعار عن الكرم والشجاعة، تماثيله التي يعبدها ذهنية، أسفاره محمولة في صدره كصليب راهب طاعن في السن، العالم عنده نخوة وقصيدة بطولة، لم يكن مريضًا، كان قويًا كجمل طليق، يعبد النساء بقدر ما يمتلكه الحنين إلى أمي، أخطأ: إنفاق ما في الجيب لن يأتي بشيء، عالمي غير عالمه، كنت أقطع اللبن من الطين نصف المائع، ابن عمي الأكبر مني وأنا شركاء، كنا نشتغل جيدًا، لكل منا هدف مختلف، كانت الأمور أسهل، رغباتنا محددة، كنا نتعاون بإخلاص، والدي الذي لم يعرف العمل قط، عرفته، استخفافه بالحياة كان ينبع من كونه لم يعمل، لم يرتبط بإنتاج، غريبًا عاش، أقدامه فقط كانت تلامس العالم، كان يقول الدراهم كالأوساخ تزول وتتراكم باستمرار، عليك أن تزيل أوساخك لتتراكم لديك أوساخ جديدة، صحيح بالنسبة له، أعرف والدي، أتمنى لو أراه اليوم، لو ألقاه الآن في داري جاثمًا كحمل شعير، يحملق في

السقف وهو يمضغ دخانه الرديء، يبصق حول المكان الذي يجلس فيه، لم يكن يشمئز من مفرزاته، كان يلف السيكارة، يشعلها، يبصق، يبعدها عن شفتيه قليلاً، يضعها من جديد، ينظر إلى السقف والجدران، ثم يبصق، عيونه تتحرك، لسانه يتحرك: (جل جلالك حمدًا لك يا رب) ثم يتابع مضغ سيكارته والبصق على الأرض، أخيرًا يلتقط عودًا من القش يحرك به بصاقه، يمسحه، يمده على مساحات أخرى من أرض الغرفة، يظل يتمتم، لا أعرف ما يقول، لكأنه محشو بالأسرار، هو الوالد الكسول هو الرجل الوحيد الذي سأحزن عليه إذا مات، لم يضربني، في صغري غرس في نفسي نزعة التمرد، لم أكن أطيعه. كنت أستمع إلى حكاياته، أندمج به كلما تكلم، أحبه لكني لم أكن أخافه، كان مختلفًا جدًا عن الآخرين، لم يملك شيئًا، كان يشحذ، يسرق، يحتال، لكنه لم لكن غبيًا، ولا نذلاً، سبب شقائي هو: تعلم، العلم يرفع بيوتًا لا عماد لها، التناقض العجيب الذي يملأ نفسي من جراء ازدواجيتي يجعلني إنساناً ممزقًا، مغرقًا في الآلام، العالم يبدو وكأنه مهيأ لمعركة لا أعرف مصيري فيها، العنجهية التي رضعتها في طفولتي، الذل المقيت، الصامت، الذي امتلأت

به عبر هذه الطفولة، يتصارعان بلا هوادة في أعماقي، ضحية الصراع صوت، من كان يحسب ذلك؟. التمزق الذي أعيشه الآن في مرحلة دراستي الجامعية، بعدي عن كل ما هو نبيل، يحطمني، يقض مضجعي، بإمكاني الآن، بعد أن شعرت بتفاهة الوجود، أن أحطم رأسي ببلطة، أو بطلق ناري، لم أعد أنتظر شيئًا، الخواء يرعبني كجني مقبرة قديمة، التناقض بين الفكرة ولباسها يشعرني بعزلة صادقة عن هذا العالم، رأسي، كما أشعر الآن، محشو بالأفكار النبيلة، الأفكار الهدامة، اليائسة، لكني لا أستطيع أن أعمل شيئًا، مكفوف أنا، شعوري بالعجز المطلق يخلبني، أحس أني تائه ضمن أمكنة لا هوية لها، لا يمكن اقتحامها، أتمنى لو أحقق شيئًا، شيئًا واحدًا فحسب، أيها العالم المقيت، أيها الناس البلهاء، أيها الموتى، أيها الأحياء، لا أريد أن أملك إمكانية تحقيق فكرة صغيرة، أريد أن أعيش تحقيقها، أن أشعر بوجودي كقوة خالقه، لماذا تخنقوني، أشعر بالغثيان، تمامًا، كروكنتان، أبصق عليكم؟ لن يشفَى غليلي، أحطم أسناني؟. آكل لحمي؟ أدفن نفسي في مزابل هائلة؟ كل هذا لن يجديني شيئًا، عجزي يلزمني كبكارة عذراء غبية، من الذي سيقودني

في هذه المتاهة المرعبة: الحيـــاة؟ إنهـــا تحتـــاج إلـــى ري متواصل، وبئري غار منه الماء، شعوري بالمهانة والغربـــة راسخ متين، أيها القدر الأبله، أتمنى لو منحتني أيدي أمـــي، وأرجل أبي ولسانه، والدي كامن فيَّ، أناضل ضده: تعاليمه، صلواته، اهتمامه، شجاره مع أمي التي كانت تقســو عليـــه كثيرًا، تكلمه بلا تهذيب، تدير وجهها له، تتعشَّى بصمت، إذا تكلم تترك المكان، أحيانًا تحثه على العمل.

ــ هم، جياع كيتامَى في مدينة لا ترحم، أولادك هـــؤلاء، ألا تحس بالخجل، انظر، هم، أنا.. لا، فكاي قويان، خبز الشعير والذرة ليس معضلة عندي، الصغار.

ــ كفَى.. ثرثارة، أين أعمل؟. سرحت، غـــزوت، ســـرقت أطعمتك لحمًا، لم أخلق للعمل، ربي أراد ذلك، مـــا بيـــدي حيلة، اعملي أنت، مكسورة يداك؟.

ــ أيتامك، كمنت كالكلبة، أحبل والد، ابتليت، خدعت بقامتك، أتمنى لو كانت قوتك لي، حياتي معك جحـــيم لا يطـــاق، لا تشتغل يمكن أن أعتبرك ميتًا، لم أعد أهتم.

ــ اصمتي، قذارة هذه الحياة معـــك، لا تُقـــدِّرين أحـــدًا، لا تحسنين غير الذم، لو كنتِ قبلاً مثلك الآن لطلقتك، لم يموتوا

جوعًا، هذا الشتاء سيقضونه كأي شتاء مرَّ، ينـــامون معًـــا، يدفئون بعضهم بعضًا، الذرة ليست سيئة، أقراصها المشـــوية لذيذة، يأكلونها، لا تخافي، تريدين أن تقعدي وأشتغل؟! أنـــا، تف.

ــ لو كان ما يربطني بك غيرهم، لحذفتك كما أحذف نعلـــي البالي، بصيرتك معمية، الكسل يقتات منك، لم تعد قادرًا على شيء، حتى نومك معي قل. كنت في السابق كحصان يشـــبه خيلاً عاصفة، لا تهدأ.. عندما تريد تلمع عيونك كعيون قِـــطٍّ سُلط عليها ضوء، تجرني إلى الفراش جرًّا، الآن تلوي عنقك أمامي، تطلب ذلك وكأنك متسول:

ــ أنت ربة البيت، ربيت الأولاد، تســـتحقين الاحتـــرام، لا ترفعي صوتك، يسمعونك.

ــ نم، ابق حيث أنتَ، سأتدبر أمري، لن تنفع أحـــدًا، اشـــنق نفسك قبل أن يلحق بك العار.

كانا يتناوبان الحديث بسرعة واحدة، لم أعد أذكر كثيرًا مـــن التفاصيل، كانت مريعة، ما مرَّ بذهني قبـــل لحظـــات هـــو الصورة الجميلة لكثير من الفترات التي تشاجرا فيها، الحيـــاة تكشف عيوبنا تعرينا، تنزع عنا مكتسبات الإنسانية، تظهـــر

وجهنا الهمجي المشوه والمقنع، لماذا التظاهر؟ العيون تنفذ عبر أقنعتنا دومًا، الحب الذي أوقعني في شباك هذه الحياة، هو نفس الهوى الذي يعذبني كل يوم، نفس عمَى البصيرة: كل يوم سيكون أفضل من سابقه ثم يحصل، عجيب،! أحيانًا الذكريات تسلمنا للحاضر، والحاضر يسلمنا للذكريات، لا انفكاك، حياتنا متصلة.

(١٠)

لم أكن أتصور أن والدي سيزورني في مثل هذا الظرف، الشتاء القارس الذي يضم شهر رمضان هل مبكرًا هذا العام، أنا الوحيد الذي لا يهتم بالصيام بين أفراد عائلتي، لشد ما آلمني منظر والدي، ظهره انحنى، الشيب ملأ فوديه، رأسه صَغُر، يبدو قويًا، لكنه نحيل، تمامًا، كجدار قديم جدًا ذي أحجار أصلية تهشمت بعض أجزائه، به جابهت مصيري وجهًا لوجه: سوف أكون مثله، أنا الضحية التالية، هذه هي صورتي، أراها الآن في أبي، إنها شبيهة بي إلى حد بعيد، معركتنا مع الزمن لا ترحم، خسارة محققة، اقشعر بدني، خبطت الأرض بقدمي، لم يكن والدي يحمل مفتاحًا لداري، الوقت كان مساء، الهواء الآتي من الغرب يحمل البرد والرعشة، الشباب الذين كانوا عائدين إلى بيوتهم قلبوا يا قات معاطفهم، لم يكن أبي يرتدي معطفًا، كان واقفًا بصلابة، قسماته جهمة، فتحنا أنفه متسعتان تعبان الهواء عبًا، النسوة المحجبات كن يسرعن نحو منازلهن، كالدواب الآتية من مراعٍ بعيدة، كل شيء كان يشعر بالبرد، حتى الأشجار

العارية من أوراقها كانت تهتز بارتعاش، جارنـــا الحـــوذي وحده كان خارج منزله، يطعم بغله الأصفر، لم يمنعه البـــرد من تقديم العلف له، نقلني بذلك إلى الماضي دون مقاومـــة، شممت رائحة التبن الممزوجة برائحة البغل الواخزة قليلاً، لم تسرني رؤية والدي، خناجر عديدة أحسست بها تخترقنـــي، هموم الدنيا كلها ركبتني، شعرت بالألم يملأ نفسي كبرميـــل يُملأ بوقود شديد الانفجار، كيف.. لم أكن..، منذ ساعات وأنا أسير في شوارع المدينة، يداي في جيبي دافئتـــان ورئتـــاي تملآن بالهواء دون محذور، ووالدي تثلج من شدة البـــرد. لا يشكو، أعرفه جيدًا، معدته خاوية، ليس لديـــه الكثيـــر مـــن النقود، تعود على ذلك، لم يكن يحتفظ بها، كانت تمر عبـــره إلينا، يحتمل الجوع كبعير صحاري قاحلة، يستعين بالله حتى على جوعه، اقتربت منه بحذر، كان واقفًا كعمود محـــروق هتفتُ:

ــ أبي، يا أبي، انظر إليَّ، أنا هنا.

ــ آه.. بني، أنت هنا؟ العالم صغير كراحـــة كـــف، أمشيه على قدمي من أجل أن أراك، انتظرتك طويلاً.

دخلنا البيت معًا، تربع على فراش عتيق، حمــدَ الله وسبَّحه جالت عيونه الصغيرة كل الأرجاء، نام، بقيــت أنــا كجريح، عيوني بلهاء، الذكريات تتسابق داخل رأسي كثعالب رأت كلاب صيد، مرة عاد من عامودًا، أوقــف أمــي فــي منتصف البيت، بادرها بأسىً:

ــ مررت بدكان حلوى، اشتهيت أن أذوقها، شــكلها غريب، تذكرتكم، جفَّ ريقي، لم أشتر، أوف.

ــ حرمت نفسك لماذا؟.. لم نر شيئًا، كأنا أكلنــا، لا تبخل على نفسك، مرة أخرى.

ــ كيف؟.. أنتم أيضًا تشتهون، لكم نفــوس، آلمنــي ذلك، أغمضت عيني، تابعت المسير وأنا أتساءل: هذه الشهوة وضعها الله فينا، لا يريد أن يرويها لماذا؟.. تدريب؟.. الإبل عطاش غدير الماء جفَّ، الآبار عميقــة، مــرس دلونــا لا بطولها، كيف؟..

ــ سأوصل مرس الدلو بحزامي، أو أجدل له شريطًا من الثياب العتيقة، سيلحق الماء دَلْوُنا، لــن يظــل بعيرنــا ظامئًا.. كذبوا لم يُرو ظمأ بعيرنا، لم يصل الماء، حبلنا كان غير متين، والدي ظل يقوده من جرن إلى جرن، يمص بقايا

الإبل التي ارتوت، تعذب معنا، طعامه قليل وماؤه قليل، حتى مراحه كان ضيقًا صغيرًا لا يكفيه، هذه هي الحياة، عـــدوى، الآن، وأنا أجلس إزاء والدي الذي نام. أتذكر حلقـــات مـــن حياته، أحس أنه تعذب أيضًا، أتألم له، أريد أن أحتضنه، أن أضعه داخل نفسي ليعيش معي، فمه فمـــي، قدمـــه قـــدماي، لسانه لساني، لا أريده أن يتعذب بعد، أحس أن الشقاء يقطر منه كسقف داري الذي لا يحجز المطر، عندما ماتـــت أمـــي اقترب مني، همس:

أمك غدت، أصبحت طعامًا للدود، أنا على الطريق، تشدني إلى الحياة أنت، لولاك لهاجرت وجاورت الرســـول، أريد أن أقضي آخر أيامي هناك، في مكة، رؤياك تحول دون ذلك، لا يهم، محمد سينقذنا من النار، جهنم ليســـت مثـــوى لمسلم، صنعت منك شيئًا، إني سعيد لذلك، والدي لم يقدم لي شيئًا، لم أره حتى، مات قبل ولادتي، أنت تشبهني أوصيك.. لم أدعه يتم كلامه، دموعي، مرة أخرى، ملأت جفوني، أمي حضرت، حية، قوية، كأن لم تكن ميتة، وصيتها قرعت أذني قاطعته:

ــ اسمع..

ــ أدري. دراستك تشغلك، اذهب؟.. إلى أين؟...

لم أجب، منعتني الدموع من الرد عليه، آلاف الأسئلة رقصت أمام عيني، وأنا أبتعد.

تابعت مسيري، درت حول المكـــان عـــدة دورات، رجعت.. هذه المحاورات كثيرًا ما تعاد وتتكرر بنفس اللهجة والأسلوب، والدي كان فخورًا بي، يعلق كل آماله على، لـــم يكن يهتم بإخوتي، أنا الوحيد الذي استقطبت اهتمامه، لكأنـــه أرادني أن أكفر عن فشله، لم يتوقع أني سأهضم ذاتي كجثـــة تتفسخ، لم يعرف أن بلائي ينبع مني كمرض الســـرطان، لا أريده أن يشعر بالخيبة، لقد كبر، أصبح هرِمًا، لم يزل يملؤه الزهو الكاذب بي، يعتقد أني أملك زمام نفســـها لا يعـــرف علتي، لو كنت مريضًا لنمت في الفراش لكني أســـير علـــى قدمي، كل شيء في غاية من الصحة والكمال، إذن، الحـــي جسد بالنسبة له، النفس لا وجود لها، مرة كان فرحًا، قال:

" أحسدك، عندما كنت راعيًا لم أشعر أني مستقل عن صاحب الحلال، كنت أخدمه، أتودد إليـــه، أخشـــاه.. أنـــت أصبحت أحسن أبناء العشيرة، تعلمت، علمتك، فضلي عليـــك كبير، كيف ستكافؤني، لا أُريد شيئًا، منك، اهتم بنفسك، أنا لم

أشحذ، سرقت، نهبت، لكنني لم أتسول إلا وُدَّ أمك، لم تكن تعاملني بمحبة، كانت تعاملني كشحاذ يطلب حفنة من طحين، أتمنى أن أعيش أكثر لأرى نهايتك، وأثق أنك ستكون.. " متى يفيق من نومه؟ قضى حياته نائمًا، أتمنى لو يفيق مرة واحدة، درت حوله اقتربت منه، تنفسه كان مضطربًا، جسمه نحيل جدًا، آثار فيَّ حس الإشفاق، قبل قليل، مررت بمتسول يجثم قرب جدار إحدى البنايات في شارعي المعتاد، تألمت، بزغ الحنان من عيني، هو صورة والدي هذا، هؤلاء الطيبون، يمر الآخرون قربهم، لا يأبهون بهن عادة، تكون دمشق مذهولة عن مثل هؤلاء دمشق الجميلة التي اغتسلت عشرات المرات هذا الشهر بماء المطر، أبي يمثل إحدى أشجارها الهرمة، نادرًا ما يحافظ الإنسان على شجرة مهترئة. الناس عجولون، يولُّون الأدبار، لا يتوقفون، لا يحسون إلا بمن يصفعهم، أتصور: لو خلع ذلك المتسول حذاءه، لو صفع به وجوه بعض المارة، لتجمهر الناس حوله، لشعروا به، لكنه مثلي، ربما كان يصفع، يبصق، يضرب، ذهني فحسب، يا إلهي! هذه الدعابة السمجة: الحياة، من قال إنها تستحق كل هذا الألم؟ نحن المشتتين بلا ضفاف، الآتين

من أراضي الجحيم، من يدفعنا هكذا، دون هوادة نحو الهاوية، من يصنع مصيرنا، يحدد وجودنا، يلبس وجوهنا الأقنعة؟! أتساءل: من، يصنع منا أحياء مكسوري الجناح لا نقوى على الطيران؟ من يسمل عيوننا ويريد منا أن نرى دون عيون؟ أنا، والدي، لحظتان حيتان من واقع مؤلم، اجتمعنا فجأة، كل منا يعيش مأساة جيله، كلانا نعيش المأساة العامة، عدونا هائل وقهَّار: التاريخ، لا تاريخ الأمة فحسب، بل تاريخ العالم، عليَّ أن أناضل ضد هذا أيضًا، معركة حزيران تدمرني، تضعني أمام مصير شخصي بحت، الهزيمة؟ النصر الذي أطلقنا عليه هذا الاسم، محنة، كتذوق لقمة مرة، كقرطة من حنظل، بصقها لن يزيل طعمها من الفم، مضغها لن يزيل طعمها أيضًا، نفير أفواهنا..؟ الحرب بالنسبة لوالدي محنة مرَّت، وما يمر لا يعني شيئًا، عندما يريد الرب أن يساعد أحدًا ينسيه مصائبه بسرعة.

بالنسبة لي لم تكن إلا حادثة وقعت في التاريخ: ذيولها تلتف حولي كالأخطبوط، تمتص مني لست أدري ماذا، لكنها ليست محنة مرت، إنها شيء آخر عذب ومخيف معًا، كلحظة حب غامر ولد فجأة والدي، هذا الذي لم يكن

أكثر من مُضاجِع، لم يختلط بالمحيط، الشقاء علمه الشك والريبة. حريته كانت أثمن من أي شيء، رمال البرية، الصفر تجذبه، تشده إليها، يكره السكن في الدور، لا يطيق الجدران، جدراني أنا من نوع آخر: الناس، أكرههم أود تحطيمهم لأعود على وضعي الطبيعي الذي فرَّ من بين يدي هزيمة التاريخ العربي في الخامس من حزيران تجردني من كل المزايا، تضعني كلوح من خشب جاف على نار حامية، استمر. أحترق رمادي يجبل من جديد ليكون إنساناً آخر يشبهني، لكنه غيري: أكثر صدقاً مع نفسه، إخلاصًا لنفسه، أكثر ثقة بنفسه.

أبي أيها العزيز، انظر إلى ابنك الواقف خلف ظهرك، دمرته الحضارة، ابنك الخائب، يا أبي، أدرك ما لا يدركه الآخرين، وقع في الشرك، والدي، أيها العزيز المصون، أيها الرجل الذي يملأ وجوده كل ذاتي، هددت أمني، جعلتني أشعر أن حياتي باهتة، كيف أعيد لها اللون والطعم والرائحة؟ الأيام تفر كالزئبق من بين أصابعي، أحتسي الفشل كما تحتسي فنجاناً من القهوة المرة... نفسي مملوءة بالخجل والضحالة أمام عنجهيتك، وثباتك اللامتناهي،

عرفتك فتيًا وكهلاً، ها أنا أقف وراءك شيخًا، خشوعي أمامك هو هو، ثابت منذ أول لحظة، لم تدنس نفسك بالسفاهات، لـــم تكن غبيًا، وجودك، هذا الوجود الحاضر في أعماقي والماثل أمامي اللحظة، يبعث بي إلى الميدان، سأحمل صورتك دائمًا، عمامتي مسكونة بها، كنت في صباك قطَّاع طرق، أُريـــد أن أصبح قطاع طرق آخر، الإنسانية مهددة. أنا مهـــدد أيضًـــا، لماذا لا أقطع الطريق، أسده بحثتني كخشية مملوءة بالتراب، التضاؤل يحطمني، يفتتني، لن أراك بعد اليـــوم إلا بعـــد أن أعيد سيرتك، سأذوق لذة المسير ليلاً، الشـــوارع المضـــاءة لعنة، أحس بها تبصقني دون اعتبار، أحجار الرصيف التـــي أدوسها منذ أربع سنوات ملَّت، لابد أنها تلعنني، هي، هـــذه الأحجار، أُريدها أن تحترمني، الناس لا يحترمـــون أحـــدًا، الأرض أكثر إخلاصًا لنا منهم. تف.

(١١)

عندما استيقظ، غسل وجهه الأسمر الشاحب، خـــرج بهدوء من الباب بعد فترة خرجت وراءه، كان يجلس علـــى الأرض قريبًا من البيت، يحرك التراب بقضيب يابس يمنـــة ويسرة، بادرته بذهول:

ــ أبي لماذا تجلس هكذا.. قُم.

ــ ها.. لا.. سعيد أنا بذلك.. هذا التراب أحبه، لـــم يبق من جيلي إلا هو، كلهم تحته الآن، ماتوا، كنـــا نجلـــس فوقه، نأكل فوقه، نتشاجر فوقه هو بالنسبة لـــي جـــزء مـــن حياتي، أنت لا تعرف قيمته، البلاط، يفصل بينـــك وبينـــه، التراب أفضل، أجلس.

ــ قم نذهب إلى البيت.. أنت صائم..

لم يجب، ظل صامتًا يحرك التراب بعوده اليـــابس، همست بيني وبين نفسي: " التراب، التراب مشكلتي الكبرى، حلها أن يضمني، أن أذوب فيه، أن أشترك في تكوينـــه، لا خلاص من الأرض، نرجع إليها آخر الأمر.. لماذا لا نناضل في سبيلها، كل ما عداها باطل، أمنا الأرض ". كان المســـاء

يقترب شيئًا فشيئًا، الزمن لا يعرف التوقف، عجلاته تظل تدور، رغم كل شيء لا يمكن الإمساك به، الحوادث العامة فقط تجعله يذهل، حِرْتُ ماذا سأقدم لوالدي؟ لا أملك إلا قليلاً من الدراهم، والذي هو الآخر لا يملك شيئًا، لابد أنه صائم، لا أُريد أن أظهر أمامه جائعًا، يجب أن أشعره أني مليء شبِع. سعيد، لا ينقصني شيء، كان يبيع فروته في الشتاء القارس ليؤمن لي الكتب والدفاتر، مشاكلي بدت ثانوية جدًا، حتى أزماتي الجنسية بدت بسيطة، أحسست أن كل توتراتي السابقة ضئيلة إزاء تهيئة عشاء مناسب لأبي، فجأة اضمحل كل الأسى القديم، حل محله نوع آخر من الشعور بالدونية لا عزاء له.

أتساءل الآن والأسى يحطم نفسي: إلى أي حد يمكن أن أمارس حياتي: الغابة التي دخلتها إلى الأبد خلاصي منها مرهون بخلاصي من نفسي، لحظات اليأس العنيفة المملوءة بالشبق تبعث الرعشة في أوصالي، تذري أحلامي حلمًا حلمًا، سأظل مطية للآخرين، أركبُ باستمرار، أُمتطَى كحمار، يداي كقدميَّ، ذاتي ثقب هائل، حمارنا الأشهب كنا نعلقه، نعطيه من طعامنا، نحمله بأثقل الحمول، كان يسير

بهدوء، كأنه يعاتبنا: " أكلتُ لأحمل؟؟ " لا مفر هـذا العـالم الذي يطعمني ويسقيني هو الآخر يودُّ أن يضع على ظهـري أحماله التي لا تطاق، المغارة التـي حاولـت أن أرى مـا بداخلها، مُضغت، لفَّني ظلامها الدامس، ليس من نور أهتدي به، لا شيء غير السلاسل وأرجل المارة الذين رُبطوا إلـى الأبد، هؤلاء الذين لا يحسون بمـن حـولهم، لا يـدركون ماهيتهم، الكل أعمَى، عندما أُريد الآن أن أتخلص من بعض الأفكار المرعبة التي تهزني أجدني مخطئًا، ماذا سأعمل في حالة الأمن والطمأنينة؟ كيف سأجد المكان المناسـب لـي؟؟ كيف سأختاره؟ هذه الحال من التوتر تحـيط كـل دعابـات الأسى المُرّ الذي ينوشني، شعوري بالإثم والخسران والتمزق يعطيني أبعادًا جديدة، لو شعرت بالحب مرة واحدة لانتهيت، كانت أمي دائمًا تنصحني بالركود والمحبة:

" لماذا تكره أختك، تسطو على لعبها، الكره أصـل الشرور، تعلم أن تحب الآخرين من قبل أن تهلك ".

لا يزال يرن في سمعي ذلك النغم المعدني لصـوتها العذب، أيام كانت معفاة، صحيحة الجسم، عندما يـذم أبـي جيراننا، كانت تهب واقفة.

ــ تعذبنا كثيرًا، جُعنا، عرينا، شحذنا، كل العيــوب فينا، أخجل، الآخرون لهم حق الحياة أيضًا، لسنا منزهين، لا تتعلم المذمة.

ــ غبية، الناس ألســنة فحســب ألســنتهم كــأذرع الأخطبوط، تطوِّقنا، ذمِّي قبل أن تُذَمِّي.. جارنا هذا التعيس، لو لم يكن أردأ منا لما كلَّمنا، من هو أفضل منك غريمــك، تكرهينه أنت، هو، لا، يحنو عليك، يجعل منك أحد أشــياعه، لا تستسلمي بسهولة، اطرقي الأرض قبل أن تلتئم فوقك.

ــ لماذا تقيم بينهم إذن؟؟ ابن بيتك في قاع مهجورة، ارحل، الأفضل أن تنسى الآخرين كن أكبر مــنهم، لا تُكِــلْ للناس كما يكيلون لك، تخسر.

ــ أفكر، أُريد أن أظل بينهم، يمنحوني القدرة علــى احتقارهم، يوم طلبت منك بعض الدراهم لأشتري لك ثوبًــا، ثوبك كان مهترئًا، لحمك يظهر منه، ضحك الكلب، اعتــذر، تألمت لمست خنجري، لم أعمل شيئًا.. أقرباؤه كانوا قريبين منا، الناس لا يرحمون، العوز سيء، باب من أبواب جهــنم، تعرفين ذلك.

ــ بلى الجوع الذي عانينا منه طيلة حياتنا الماضـــية جعلني أكرهك، وأتفاعل معك، أشمت بك، وأحنـــو عليـــك، تغيرت كثيرًا، الحياة صعبة.

ــ ليكن كل شيء يتغير، كـــلاب هـــؤلاء. ســـرحت بمواشيهم، لم أحصل على شيء جعلوا مني راعيًا جيدًا، لـــم أخلق لأظل راعيًا تركت كل عمل، لا يهم، أن نموت جوعًا، تنبت الرغل، والكعوب والحيلوان.. و...

ــ لا تريد أن تعمل هذا ما تريد.

كان أبي يصمت في نهاية كل حوار مـــع أمـــي، لا أدري من كان أرجع عقلاً، حججها كانـــت تـــرتبط بالغـــذاء والسكن، هو، لا، العنف والكراهية تملآن أعماقـــه، يشـــعر بالعذاب كديك قُطع عنقه.. حياته مزيج من الفشل والشـــعور بالتفوق: " متى أغدو خيارهم؟.. يملكون الأغنام والجمال، لا أملك غير زوجتي، وهي لا تتقن إلا يومي ".. لم يهنـــأ فـــي حياته، هذا الكهل، الغريب الأطوار، الطيب، الحنون، الـــذي يشعر بالتمزق الصارخ في أعماقه هذا الـــــ.. رَفَضَ العمل، رفض استخدامه، كان يرانا جياعًا، نتضور كجـــراء عمّـــي، والدتنا تبكي تذرف الدموع، منا.

كانت الكلمات تهرب منه، يتغير لونه، يتأملنا واحـــدًا واحدًا، يخرج بنزق، بحجة أنه سيبول، كان يبكي، رأيته مرة يبكي بألم ثم يأتي مهرولاً ليغمط رأسه الوسخ، ينام، لم يكـــن ينام، كانت تحتله سِمَة من الهياج الصامت، ألمه أكبـــر مـــن احتماله، حطمه الكسل، لم يعمل، كما يتبادر لي الآن، لأنـــه أدرك ثمة لعبة مقرفة: كونه يد الآخرين، أراد أن يمتلك، لـــم يعرف الطريق، امتلكه العوز، أحس بالقيمة، قيمة الإنســـان تهدر، العمل كان بالنسبة له اســـتعبادًا لا يحـــل مشـــاكل، لا يؤدي إلى طريق صحيح، انكفأ على نفسه كجرذٍ يلوذ بغـــار عندما يأتي فيض، اختنق، كان يسرق، يأخذ حلال الآخـــرين عنوة، السرقة عنده، كما أرها الآن: تحصـــيل حـــق فـــردي مشروع، بوسيلة غير مشروعة، لا شرعيتها مستمدة من حق الامتلاك الذي أكده المالكون ليحموا ما يملكون، لعبـــة مـــاذا نلتزم بما يسنه الناس إذا لم نَخْشَ على شيء؟ الصبر، لفظته المختارة تختلف عن صبر الآخرين، كانـــت تعنـــي عنـــده الحنظل، الصبر مُرٌّ كالصبر، ظل يُردِّد ذلك، لم تكن له ميزة غير القدرة الهائلة على التحمل والارتداد إلى نفسه، تعـــذب كثيرًا، اكتسب قوة لا تُقدر، حتى بيتنا كان يبني بعيـــدًا عـــن

البيوت، وحدته تجلَّت حتى في نظرته إلينا، لم يكلمنـــا، لـــم يلعب معنا، كان أبانا فحسب، أتمنى لو أُقبِّل قدمـــه الآن، لا فرق بين مشكلتنا، أنا أيضًا لم أعمل، لم أسأل نفسي لمـــاذا، أُريد أن أعرف جدوى العمل، قد يقال إنني بالعمـــل أؤمِّـــن عيشتي. لماذا؟..

قد يقال إنني أوفِّر به كرامتي كفرد، لماذا؟.. يجـــب أن يطرح السؤال كما يلي: لماذا لا يعمل الآخرون؟ أليس لهم حياة وكرامة؟ لماذا لا يتناوب الناس كلهم دون استثناء مهمة تنظيف الشوارع، ثم مهمة مسح الأحذية، ثـــم مهمـــة جمـــع القمامات؟! تقسيم العمل لا مفرّ منه، لكـــن لمـــاذا يلتصـــق الإنسان بمهنة واحدة حتى يموت؟.. قيمتي كإنسان تتحقق في إحدى حالتين: تناوب القيام بأعمال مختلفة، أو حـــذف قيمـــة الفرد التي يكتسبها من مهنته، كلنا معه، لا قيمة لأحد، بمقدار ما لنا كلنا من قيمة. التفوق الذي يمارسه الآخـــرون علـــى يقطعني نصفين، لست أسوأ من غيري، إن كنت أسوأ منهم، هم جعلوا مني ذلك ليستخدموني، أرفض، تقسيم العمل كمـــا هي الحال الآن، مرتبط بعبودية الآخرين، تنبع منه، اهتمامي بعلم الوراثة لم يحل هذه المقـــولات اللامجديـــة، النـــاس لا

يعاملوني حسب ما أعرف، بل حسب ما أملك مـــا أملكـــه لا يساوي شيئًا.. ذكائي أقل من ذكائهم، لكني أتساءل، لمـــاذا؟ الجواب واضح. والذي أدرك بحسه اللعبة المهنية. عاشها. أنا أدركت اللعبة بعقلي، لا أزال أعيشها واقعي اليوم لا يختلـــف عن ذكرياتي، كلها مؤلمة، لامجديـــة، غيـــر قابلـــة للحـــل. الاشمئزاز يبتلعني، شد ما أحسُّ بـــالغيظ إزاء هـــؤلاء لـــم يرحموا أبي، وعيت ذلك، لن يرحموني أيضًا، تف.

لماذا أستمر في طرح هذه المشاكل في حين يهـــرول العالم نحو التفاهة؟ في دمشق المزدانـــة دائمًـــا بالأضـــواء والثياب الجميلة، عشت فترة امتلأت فيهـــا نفســـي بالحقـــد والزعل كحوض يصب فيه صنبور غير محسوس، الأمـــور التي تمر بي تخلق مني عبدًا تافهًا، حياتي المغلوطة ملأتنـــي رغبات، حرمتني كل شيء، الفلسفة علمتنـــي: إن الإنســـان يسعى نحو مالا يستطيع تحقيقه، ما يستطيع تحقيقـــه، حققـــه فعلاً، عاشه، لم يعد يثيره، السعي كالضـــوء ينتشـــر نحـــو الأماكن المظلمة بشكل أسرع، تربيتنا كانـــت جبانـــة: مـــد أطرافك بطول غطائك. لماذا؟ لا أُريدها أن تبرد لا حس بها، لأبحث عن غطاء بطولها، امتنانًا بالتفوق الكـــاذب، ذواتنـــا

تضخَّمت بقدر كبير، أُخرجنا من دروبنا، وُضِعْنَا فـــي أرض وعرة مملوءة بالشوك والعَرْعَرْ، هنا تكمن المفارقة، التفـــوق مشروط بالهزيمة والخيال، إنه عباءة يخلعها علينا الآخرون، نقاسي مآسينا بكل دناءة البشر، لكن الواجـــب يحثنـــا علـــى التسامي عليها، ملهاة رائعة التعاليم، أن نتسامى فوق مآسينا، يعني أن نتركها جانبًا، ألا نشعر بها، أن نموت قبل حلهـــا.. المأساة، الحدث الإيجابي الوحيد في الحياة، يُشوَّه باستمرار، لماذا؟ جميع أشكال المجتمعات منذ فجر التاريخ غير عادلة، تريد أن تطمس آثار الخلل، الهيجان الرفض، فالثورة.

التسامي على الأسى، يعني التخلي، الابتعـــاد عنـــه الأخذ بشيء آخر. مضاد له، ربما، من هنا يولـــد القضـــاء المبرم على ذات البشر الواعية، احتقاري لأبي ولا تقـــديري له ينبعان من هنا: عدم التصاقه الدائم بمأساته: تمسكه غيـــر عنيد بها، عندما كنا صغارًا، في ذروة ثورة أمي كثيرًا مـــا كان يبدو صامتًا، يهز رأسه، يتناول الفأس، ثم الوتد المقـــي بجانبه، ثم عصاه ذات الرأس الغلـــيظ، كنـــت أنظـــر إليـــه مدهوشًا، كان يموء كقط أُخذت من بين أنيابـــه قطعـــة مـــن اللحم، يقوم ويقعد رياحه هوجاء، عواطفه مُدمَّرة، ألمه ينزمن

تحت جلده بسورة لا تتوقف.. ينظر إلينا يستعرضنا واحـــدًا، واحدًا، نظراته تقف فوقي آخر الأمر، بعدها كـــان يخـــرج مسرعًا، يولِّي الأدبار، أقول في نفسي: هذه المرة راح لـــن يرجع قبل أن يأتينا بشيء بعد فترة كان يعود وهـــو هـــادئ مرتاح، لو كان بإمكانه أن يلتصق بهذا الوجه البشع لحياتـــه زمنًا أطول، ما كان فشل، لو جابه الواقع لانتصر، الهزيمـــة التي مُنِّينا بها في "حزيران" تتحول إلى نصر إذا التصقنا بها حقًا، إن لم نتسام عليها تساميًا كاذبًا، علينا أن نحط الرحـــال عندها حتى نودِّعها، هزيمتنـــا الأخيـــرة، أردت أن أســـميها هزيمة هكذا لتفرحوا، لن تبيض لنا نصرًا، إن لم نمضـــغها، ستموت هي أيضًا كقبضة ريح بين فجاج واسعة، الإنسان لا يموت من الأسى، كما لا يموت من الفشل، الغبطة، وحدها، قد تؤدي به إلى الموت، الأسى لا يهدد الفكر داخل القحـــف، يهدد الجسد داخل حيزه المكاني، يدفع الفرد للمحافظة علـــى مكانه، فينتشله من قحفه، يضعه فـــي مواجهـــة العـــالم ذي الأنياب الحادة، يجعله يحيا، بعيرنا الهزيل، في مراحه، كان يتعرض لمضايقات جِمال أقوى منه وأفتَى، لكنـــه لـــم يكـــن يتململ، لم يكن يغادر مراحه، كان ينهشها بأنيابه، يهدر بشدة

وقسوة، يتلفت يُمنة ويُسرة دون أن تزحزح من مكانه المعتاد، يظل يدافع عنه، عالم الحيوان شبيه بعالم الإنسان، تمامًا عالم الإنسان ليس صورة أرقى من عالم الحيوان، البعير الذي يترك مراحه لا يعود إليه، يحتله آخر، يصبح دون مثوى، تتعلم الجمال الأخرى، حتى الأضعف منه، طرده من أي مراح يثوي فيه.. عملية مسلية أن يؤكد الإنسان ذاته. عملية تأكيد الذات تتصل حقًا بتنازع البقاء، صورة أخرى للمكان، الزمن يحتل الجسد، لكن الجسد دائمًا يحتل المكان، المكان أثمن وأضر، "داروين" يسكن رأسي، والدي الذي خاب سعيه الطويل من أجل الحصول على المال والمركز، تاه في صحراء خيبته اللامحدودة، جرَّني وراءه ككلب الراعي، هذا النقاش البسيط الواضح الذي يدور في أعماقي، لا يدع لي مجالاً للتنفس، يخنقني كدودة تحت خُف بعير.

(١٢)

من موطن الذكريات، من البيت المُهدَّم الـــذي نشـــأت فيه، من مدينتي القديمة، جاء أبي إلى دمشـــق ليخبرنـــي أن أختي على عتبة الموت، قد لا تظل إلى حين أصل، ســـافرنا معًا، ذات يوم باهت وغدير كَدِر، نحـــو مـــدينتي الصـــغيرة الضائعة في سهول قليلة الخصوبة، في السيارة تنهَّـــد أبـــي، عرفتُ أن حماسًا غامضًا يملؤه انفجر فجأة بحداء آخذ يعلـــو شيئًا فشيئًا، سرى الحماس إلى أحد الأشخاص الـــذين كـــانوا بالقرب منا، التفت نحو أبي: " غَنِّ " أيهـــا العـــم، غنـــاؤك مطرب، لحظات المساء مملوءة بالكآبة ". امتلأ والدي بالحنق وهو يقول:

ــ يسمي الحداء غناءً...؟؟ أحمق.

كان أنين السيارة المكتوم ينتشر في البراري كعـــواء ذئاب شرسة الركاب بدأت رءوسهم تتمايل، حجارة الطريـــق الصغيرة كانت تتطاير نحو الخلف بقوة، "العجاج" كان يعلو، دوائره تلتف على بعضها، كان كل منا غارقًا في ذاته، بعـــد أن وصلنا، استرحتُ قليلاً، خرجت بعدها إلى ساحة بيتنـــا،

اتجهتْ نظراتي إلى الغرب عفوًا، كان الأفق واسعًا، جميلاً، قلت لنفسي: هذه لحظة نادرة من الزمن، قد لا تـــأتي مـــرة أخرى، كانت الذكريات تتداعى بهدوء واستمرار، منذ سنين، عندما كانت أمي حيَّة، قبل أن أسافر إلى دمشق، كانت تمـــدُّ لي قطع فُرس رثة تجلس عليها قربي، تنظر إليَّ وأنا أمضغ اللُقْم بسرعة، كان الخبز غذائي المفضل، كانت تفرح عنـــدما تؤمنه لي، أحيانًا تخاطبني بزهو:

" كُلْ " الجوع رجل جبان كما يقول أبوك، كل شيء يطرده، نحن عشنا من الأرض فترة طويلة من الزمن، لـــو كان الناس يسمنون من الطعام لانتفخوا، جيراننا كـــل يـــوم سمن ولحم وثريد ".

في دمشق، عندما كنت أقف، لم يكـــن باســـتطاعتي رؤية الأفق كان نظري يتجه إلى السماء، الجوانب ممتنعـــة عن الرؤية، بنايات، دور فوق دور، هنا، الآفـــاق مكشـــوفة، كسيدة انحسر ثوبها، أي زمن مرَّ فعلاً، خسرتُ والدتي، هـــا أنا أنتظر خسران أختي، عشـــنا معًـــا، لا يمكـــن نســـيانهما بسهولة، كدارنا القديمة التي شاركت في بنائها، لم تفرحا بي، لن تعرفا ما سيكون مصيري، هـــذا يســـاعد أكثـــر علـــى

الخلاص، الحنان يكبلنا، يجعلنا أضعف مما نحن. بفعل الزمن مر، تراكمت شتى الذكريات في خلايا دماغي، هذه الذكريات التي تحدد صفاتي كرجل تؤلمني كوخز دبابيس تتحرك في أعماقي، الحاضر غير مؤلم، أعيشه، كون الحدث حاضرًا يُشدُّه، ممارسة الفعل تعطيه صيغة من الغياب خارجة عن نطاق إرادتنا عندما جاء وقت النوم، تمددنا على الأرض، تفصلنا عنها قطع الفرش العتيقة، كنا ثمانية، مساحة الدار لا تتجاوز ٣ × ٤ م. أنفاسنا كانت تختلط بشكل قسري، كيف يمكن ألا نحب بعضنا بعضًا؟ أنفاسنا، ربما الكريهة، التي اختلطت منذ البدء، والتي كانت تعبق في جو الغرفة الضيق ملأت نفسي بالثورة اليائسة: هذا التمازج اللامحدود، هو الذي يملؤنا بالحنين الغامض، الهادئ والعتيق معًا، هذا الامتزاج هو الذي يجعلنا نحِنُّ إلى بعضنا، نخشى بعضنا أيضًا، الذكريات التي تمتزج في ذهني، الآن، كامتزاج أنفاسنا في هواء الغرفة المخلوق، يخبلني بيتنا القديم المهدم، الذي يتوسط البيوت القديمة ذات الحيطان المبلولة دومًا في فصل الشتاء، هذا البيت، الذي نشأتُ فيه طفولتي، جبلت له الطين، نسيته تقريبًا في دمشق، لكن ما إن رأيته حتى شعرت

بنوع غامض من الهيمان، كسنُونو يعود إلى عُشِّه، ها أنـــذا أقف في ساحته، الآن، أتطلع نحو الغرب، صوب دمشق، مَنْ يستطيع أن يؤكد أن تلك السنين الطويلة التعيسة مرت؟ قـــوة الرؤية عندي هائلة: أكاد أرى "قاسيون" الأجرد، الحيلة سهلة على النفس، كل شيء يمكن عمله في الذهن، قبل قليل كنـــت أتذكر أمورًا كثيرة مرت في حياتي، أنظمها من جديد، عندما أردت أن أستعيد ما تذكرته من قبل، لم أحصل على شيء ما زلت أعاني كابوس النسيان!. ذهني مكنسة هائلة، أعوادهـــا الماضي، تسوق الحاضر أمامها نحو وادي الموت، ســـيدٌ لا يُبارَى هذا الذهن، الأيام التي قضيتها في دمشق لم تبدل شيئًا من الماضي، القِدْر ذو القعر الأسود الذي كانت تطبخ أمـــي فيه البطاطا، لم يزل كما هو: قعره أســـود، باطنـــه أســـود، السرداب الصغير المظلم الرطب، الواطئ الســـقف، لا زال أيضًا كالسابق، كنت أغتسل فيه، كان بمثابة الحَمَّام لنا، كـــان رأسي يصدم بسقفه كل مرة أحاول أن أعدل قليلاً من قامتي، أخشاب سقف بيتنا ازدادت دكنة. لم يتبدل شيء. لـــم يبـــق شيء كما هو أيضًا، هذا البيت عشت فيـــه صـــغيرًا، منـــه انطلقت إليه عدت، ليس كذي قبل تمامًا، لا أشعر نحوه بمـــا

كنت أشعر به قبلاً غموض مؤلم يدركني، ذهــولٌ لا مُبــرَّر يسكنني، تغيرتُ أتساءل كيف شعرت ذات يوم بالفرح يسري في عروقي هنا؟ في بعض الإصباح والأماسي كنت أمــارس نوعًا من الخيلاء أمام دارنا هذه، كيف؟ كنت أراقب الفتيــات عندما ينحدرن نحو النهر، يملأن الجرار ذات اللــون البنــي الداكن، وأنا سعيد، كيف؟. أستطيع أن أستعيد الكثيــر مــن الذكريات، لا ريب لا يفيد ذلك شيئًا، لماذا أشعر الآن بالذبول كأني غصن طري قطع من شجرة، مَنْ أكثر يقينًا، أنا الآن، أم أنا قبل أربع سنوات؟..

أختي المريضة تعاني النزعات الأخيرة من حياتهــا، تريد أن تنطلق إلى عوالم جديدة لم تعهدها من قبل، لو حدث ذلك قبل خمسة أعوام لكنت حريًا بالبكاء والعويل والصراخ، تمامًا، كما يبكي ويعول ويصرخ أولادها الجــاثمين قُــرب رأسها، لا يدرون أن ذلك هباء التفاعلات الكيماويــة داخــل جسدها لم تعد قابلة للعكس، نواتج هــذه التفــاعلات تحــدِّد مصيرها، لا يمكن قهر الكيمياء، بعــد فتــرة مــن الــزمن ستموت، ستحل تفاعلات جديدة داخل جسدها، ليس بإمكاننــا إيقاف ذلك، الحياة تحمل عناصر بقائها، لا يمكن لجمهــا، لا

أهمية لذلك أيضًا، أشياء كثيرة تأتي وتهب، مَـــنْ يحصـــيها؟ لكنهم أهلي.

لا يملكون إلا الصراخ والعويل، يبكون أنفسهم بهـــا، هم أيضًا أموات، يؤلمني هذا المصير، لـــن يكـــون موتهـــا مأساة، لأنها لن تعيه، الغياب التدريجي لها يحميها من ذلـــك الحياة تمتص منها قليلاً قليلاً، كرأس أفعى بُتر، مـــا يـــدهش أنها سكْرَى، كل شيء عندها يغمره ضـــباب، الكثيـــر مـــن وظائفها معطلة، تقترب من النهاية حثيثًا، نهاية هذا الاختلاط العجيب للعناصر: الحياة.

من منا على حق؟ أنا الآن كما أقف إزاء موت أختي بهدوء ولا مبالاة أقبله كنسيم لزجٍ يأتي من وادٍ تملؤه الجثث المتفسخة، أم هم بكاؤهم يأتي من أعماق ملأَى بيأس قاتـــل؟ من يدري؟ أنا حتمًا هذه المرة، الأحياء يُمـــلأون بمحتـــوى حياتهم دومًا، يُحْـــقَنون بالتجارب الصغيرة البسيطة التـــي لا تثيرهم لكنها تُختزَن في أدمغتهم، يتغيرون قســـرًا، الـــزمن يعادل ما يحمله من تجارب، كل شيء يجرفنا معه، الركـــود غير ممكن، النهايات التي سنصل إليها بمجموعنا لـــن تكـــو

أكثر أهمية من نهاية أي عنصر من عناصر هذا الكون. تبًـــا للعادة. لماذا ابتُـــلينا بأفراحنا وأحزاننا؟؟..

لماذا نتصرف كالبلهاء في حقل بهيج؟ الحياة جـــديرة بالمواقف الكبيرة والانعطافات الحادة. والعادة تهضم الحيـــاة، كما يهضم ثور قطعة من القش.

القسم الثاني

(١)

عندما تغرب الشموس
ذات الشروق البطيء والمفرح
أحس بالانسحاق
تحت وطأة أيامي الرمادية.
إيه.. أيها القدر
ذو الوجه الكابي
والأنياب المسنونة
لن أكون ككلبة فقدت جروها
لن أنشد أناشيد الخيبة والضلال

من يدري؟! إني واثق أن الخيبة تسري في عروقي، الله وحده قادر على إنقاذي من براثن جنون العظمة، كان النهار يودع آخر ساعاته، المدينة تذوب في نوع مبهم من الظلام، شعرت بلمعانٍ حادٍ في عيوني، كنت أجلس في مقهى على ملتقى عدة شوارع، فجأة اندفعت الأسئلة في رأسي دون ترتيب: ضدَّ أي عدو وهمي أحارب؟؟.. من هو العدو الذي أُجنِّد طاقاتي، لأدافع عن نفسي ضده؟؟ شعرت بالخذلان، كان الصمت الذي يجري في أعماقي يحطمني، مصير العالم مع

احتمال نشوب حرب ذرية يفزعني، العالم يرقص على الهيدروجين، كما يقول مخرج فيلم "يوم خرجت السمكة من الماء". الجهل المطبق الذي يعيشه العالم عن مصيره، يفضح مصيري، يجعلني أقف عاريًا أمام ستين سنة، ربما سأعيشها، هذا الذهول يجعلني أقرر أمورًا كثيرة، قد لا تبدو صحيحة، أو معترفًا بها، ولكن لا بد من تعزيزها. ثمة شيء أستطيع أن أفعله شيء بسيط، جميل، مُسلٍ، يعيد إليَّ السكون والهدوء قلقي لا يمكن وصفه، أشعر أن لهذا المجتمع حقوقًا كثيرة عليَّ يجب أن أسدِّدها له بأقصر الطرق وأفضلها. قد لا يكون من السهل العثور على حل لمعضلة حياتية تعذب رجلاً عدة سنين، لكنه أحيانًا، يصبح من أعمق أعماقه، بثقة ويقين: "وجدتها" أنا وجدتها أيضًا عليَّ أن أقوم بتنفيذها، إن بي رغبة عارمة لأن أصيح بأعلى صوتي في مكبرات صوت لا تحصى، "لن أموت، سأقاوم، سأصنع السعادة التي حملت بها، بالقدر الذي يكفيني" الشعور العنيف الحاسم الذي يملؤني تصميمًا، يبدو لي جديرًا بالتقديس والاحترام، سأنفذ كل ما يخطر لي بطمأنينة، أجزم أن اللحظة الحاسمة تستحق أن تُقدس، كيف يمكن لي أن أتوانَى عن ممارسة مثل هذا العمل

لحظة واحدة؟؟ الوجود اللامجدي الذي ينتقل إلى وجود مجد وعظيم لا يمكن أن يهمل، أو أن يعامل بلا اهتمام سأدبر كل خطتي بهدوء وكتمان، سأنفذ كل ما أُريد كسيل عَرِم لا يعاق، سأظل أبحث عن طريق لتحقيق ذلك، الآن. وأنا أستحضر ذكرياتي القديمة التي تتعلق بالحوادث الجنسية، أشعر بالغبطة والمرارة والألم، صورة صديقتي الشقراء ذات العينين الواسعتين والشعر الوبري الناعم، لا زالت واضحة كما لم أعهدها من قبل، تأوُّهات الأخرى، ذات الجسد المُرهَّل، والملمس الدَّبق، اسمعها بوضوح، يتعثر في نفسي اشمئزاز ما، الذكريات القبيحة مؤلمة، لا يمكن التحكم بها، الحياة النفسية كاملة، لو كان سواء الحي دائمًا بحاجة إلى الحاضر ليصنع منه ماضيًا، لكنه عندما يصنع من الماضي حاضرًا يسقط، يرتمي عن ظهر جواده العَتِيّْ: الحياة سبب النكسات الاجتماعية في حياتنا المعاصرة كعرب: التاريخ من أين نأتي به؟؟ من بطوننا؟؟؟ ارتعشتُ فجأة، كأني أفقتُ من سبات عميق: كان مكبِّر الصوت يصدح، يترحَّم على أحدهم، يبدو أنه ثريّْ، عرفتُ ذلك من كثرة السيارات السود وراءه، مرت أفكار شتى وغريبة بذهني، هذا الميت، لو ألقى تقديرًا كما

يلقى، أنا الحي، ربما كان هو سبب شقائي، من يدري؟؟ من يستطيع أن يذرف دمعة واحدة على حي، لماذا على ميت؟ لماذا يؤله الناس بعضهم بعضًا؟؟؟ يرون فضائل من يموت، ورذائل من يحيا! الحيوان لا يعرف غير الألم الفسيولوجي، من أين جاءنا، نحن البشر، الألم السيكولوجي؟ لعبة قديمة مرت بها الإنسانية، أجزم أنه بالإمكان تخليص الإنسان من ألمه: بتدميره، فكرة تخلخل البنيان، لا بأس بها للقضاء على الحزن الكامن والمذهل والمخيف في أعماقنا، الميت رمز، تاريخ يُحنط، تاريخ يلقن لأحياء أبرياء دونما مبرر، علة مصائبنا الأموات فوق الأرض أو تحت الأرض، الدموع لا تذرف على الأموات لأنهم ماتوا، بل على الأحياء الذي سيموتون، لماذا يثير ذلك الجثمان، الرمز الأسود للزمن والغباء والتاريخ، النحيب في كل مكان؟ أوراق النعي السود تملأ الشوارع بإجلال كبير، تُقرأ بإجلال كبير، لا أحد يبصق عليها، لو كانت منشورًا سياسيًا لما اهتم بها أحد، ماذا لو كرست نفسي لتدمير سيارات نقل الموتى؟؟ تدمير السيارة التي تحمل الجثمان يعني أكثر من حاجة ملحة لي، يحقق عندي، كما أتصور، توازنًا نفسيًا، بغير تاريخي كله. الليل

الذي يحل الآن على المدينة يذهلني، يضعني إزاء نفسي لأول مرة سأقوم بعمل أعتقد أنه مجدٍ، الخيل يأتيني من كل مكان: أهلي الموتى، مكبرات الصوت، أوراق النعي، الهزيمة، الجسد، جسد الأنثى، التاريخ، كل شيء يصفعني، كأن مطرقة هائلة تطرق صدغي دون توقف، أحس أن رغباتي تافهة ولا مرضية، أذيل دون ضجة، كما أتألم دون ضجة.

" سعادة هائلة منحتها لي، لو نظل لاصقين إلى الأبد، المجتمع عيونه نافذة، يعرف كل شيء أخشاه، لا حيلة لي، الزواج سيوفر لنا كل ما نريد، أحشائي تشتاق إليك اشتياق تربة عطشي إلى مطر عنيف.. " كانت ستقول مثل هذا القول، إني متأكد جدًا، كثيرات قلن لي ذلك اليوم، أجد الجواب عليها واضحًا، لا تغريني التنهدات: " الجنس حاجة جسدية لا تتعلق بالشوق، خلايانا تعرف ما يلائمها، الزواج إكراه، تحدٍ لكرامة الإنسان، حذف لرغباته، لا أُريد أن أزيد هذا المجتمع أسرة أخرى، حريتي أثمن من أجسادهن، التقاليد لا تعني لي شيئًا، أحب أن أعرف ما وراءها لن تفرح بي أنثى، وحدتي مزروعة حتى في طُرُق حذائي "..

(٢)

رغم كل شيء سأنفذ ما يدور في ذهني الآن: أنسف سيارات نقل الموتى، الحياة التي عشتها قبلاً تجبرني على الانتقام، إذا آمنتُ، ذهنيًا، بفكرة قيام مجتمع عادل، خالٍ من الشرور، أندفع بكُلٍ لأدمر الشكل الحالي له، الحب الذي يصل إلى درجة الحقد يثقل ضميري، نسف سيارات نقل الموتى السود، سيعيد إليّ السكون، إزاء قلق هائل يحطم حياتي، ستعتمد الطريقة التي سأحقق بها رغبتي قليلاً على كفاءتي كرجل، وكثيرًا على حقدي كإنسان، يجب أن أتعلم الأساليب التي تمكنني من ذلك، مظاهر الحياة التي عشتها حتى هذه اللحظة لم تكن فعلية، الألفاظ امتصتني، كتربة عطشي تمتص زَخَّات خفيفة من مطر صيفي، لم أكن شيئًا، قيمتي تساوي ألفاظي، أفعال الإنسان تحدد قيمته إذا استطعت أن أحصل على نوع من المتفجرات، صغير الحجم، إخفاؤه بسهولة، أدسّه داخل السيارة، قُرب جثمان الميت، سيكون خطوة أكيدة باتجاه الهدف، سأحقق للميت موتًا هو أكثر جدارة به كإنسان، التفاهة لا إنسانية، أي شعور كبير

سيملؤني وأنا أراقب شظايا النعش تتطاير في الريح بدلاً من أن تتدَسَّ في التراب؟ أوراق النعي الملصقة على الجدران هدفي، سأبحث عنها، عن ضحايا لي، عليَّ أن أقرع ناقوس الخطأ الذي شربناه كمسلمة لا تتناقش منذ الأزل.

أثر المأساة المأسوي لا يمكن في حدوثها، بل في محاولتنا تجنبها، في خشيتنا منها، في تصورنا القبلي لها، هراء، كل ما هو رائع مخيف، الأمان يلازم الدونية، المخاطر تكمن في القمم دومًا، لماذا أخاف من أن أعيش حياتي؟ سأبحث بجد هذه المرة، أمر بكل جدران المدينة، البارحة قرأت نعي أحدهم، أوراق نعيه سود مطرزة الحواشي، ورقها ثمين، ألصقتْ بعناية فائقة على الجدران المِلْسِ، سيُشيَّع جثمانه اليوم، سأتوجه توًا إلى بيته، توفاه الله فجر يوم الجمعة الواقع في ١٥ رمضان المصادف ٢٢ "شباط"، لابد أن يكون وليًا، كانت أمي تردد دائمًا: من يموت في منتصف رمضان، يوم جمعة، مثواه الجنة، لا جدال.. فإليه.. عندما وصلت، حمتُ حول السيارة الجاثمة عند مدخل البيت الخارجي بانتظار وصول النعش، فتحت بابها الخلفي، ألقيت نظرة فاحصة داخلها، تأكدت من متفجراتي مرَّ بعض

المعزين بي مسرعين، رءوسهم تتدلَّى إلى أسفل كأنها شدت بحبال، عندما أصبح المكان خاليًا، فتحت البـــاب بســـرعة، وضعت المتفجرات في أماكن مستورة داخل السيارة، أغلقت الباب، ابتعدت قليلاً، ألقيت عليها نظرة حنونة: ســـتنفجرين، مرَّ فرح برأسي، كأني أشاهد إحدى مآسي الإغريق القـــدماء على جبل الأولمب، فترة قصيرة مرَّت بعدها، ضقتُ ذرعًـــا بالناس الذين تكوَّموا قُرب البيت، كانوا يقتربون من بعضهم كغربان تحط حول فرس نافق، فجأة خـــرج الـــنعش، أربـــع يحملونه، كان تابوتًا رائعًـــا، يبـــدو أنيقًـــا، ثمينًـــا، احتفـــى الحاضرون به، مئات من الناس تزاحمـــوا خلفـــه، انتحيـــت جانبًا، همس أحدهم لصديقه: رحمه الله، كان قاطعًـــا، كـــل الذين اشتغلوا عنده ذموه، لم ينصف أحدًا كما ســـمعت، لـــم أشتغل عنده.

الآخر يهمس أيضًا: الله يمهل ولا يهمل، سيقتص منه لكل الذين غبنَهم، من أين له كل هذه الثروة، امتصّ الآخرين كقملة على جسد وسخ، إلى جهنم.

ضحكت، ابتسامتي كانت ذات مغزى هـــذه المـــرة، شفاهي لم تنفرج كثيرًا، كان مكبر الصوت يحمل عبر الريح

الهادئ صوت القارئ ينشد آيات حزينة من القرى، يلحقها بترحُّمات جمَّة على روح الميت، امتطيت دراجتي وراء السيارات مثل كلب يلحق ظعنًا من الإبل، كان الموكب يسير بجلال وكآبة، يقترب من المقبرة العظيمة التي تتوسط دمشق كأنها إحدى العجائب السبع، قلقي كان يتجمع شيئًا فشيئًا، نظم تنفسي كان يزداد اضطرابًا، كنت أنتظر بفارغ الصبر، بغتة دوَّى الانفجار، ارتطمت عجلة دراجتي الأمامية بطرف الرصيف، وقعت عنها، تراب الحفريات تناثر عليَّ، نهضت، نفضت ثيابي، تحول بصري نحو مكان الانفجار، شظايا عديدة تطايرت، بعض السيارات ضرب بعضها الآخر، تعطل المرور، هرع الناس من البيوت القريبة يلهثون، عيونهم ملأى بالتساؤل، امتطيت دراجتي من جديد، سرت على الرصيف المقابل، أسندتها على جدار قريب من مكان الانفجار، مرت ابتسامة خفيفة بشفتي، ملأتني رغبة بالقفز إلى أعلى، امتلأت رئتاي بالهواء، حبست شهيقي لئلا أنفجر صائحًا: أنا، أنا، دمرته، لم أفعل، امتدت رقبتي عبر رقاب كثيرة كدجاج ظامئ على جرن ماء: صَمْتٌ مهيب كان يملأ المكان. ألسنة الناس تحركت فجأة كأعناق نوق عائدة من

المرعى: هادئة، هادئة، ثم هامسة، بعد ذلك أسرعت بالكلام ككلابٍ تلعق لبنًا:

- لا. قضاء وقدر.
- لا قد يكون عدوا.
- لا. حاسبه الله، لم يحاسبه أحد، كان ثريًا، المال يحمي.
- لا. السيارة انفجرت لكن الجثمان لم يحترق.
- لا. لا أحد يدري.
- لا. زمننا زمن المعجزات، سنرى أكبر.
- لا. ليست مصيبة، روحه في السماء.
- لا. في فيتنام هم يحرقون أنفسهم.
- لا. الفدائيون يحرقون الدور.
- لا. الفدائيون يموتون وجثثهم تبقى في الفضاء، لا يهتم بها أحد.
- لا. محنة نمرُّ بها، يسترنا الله.
- لا أعرف، هناك سِرٌ، ربما كانت الحكومة.
- لا. لا. لا.

كنت أنتقل بين الناس، آكل كلماتهم، كانت تأتي من بعيد، لا تحوي حرارة الاهتمام، يتناجون بهدوء، دونما رغبة في الكلام أحيانًا، وأحيانًا لا، عيونهم لا تستقر على منظر، شيء كجماعة من محبي السيرك في آخر حفلاته. أطربني المشهد، منذ أيام وأنا أبحث بشغف عن الموتى لأصيد سيارة أخرى، لم تلصق خلال هذه الفترة ورقة نعي واحدة، عواء المشيعين اختفي، لكأن الموت مات هذه المرة، سبَّب ذلك لي كآبة، أعترف أن الحادثة السابقة ملأتني بالفرح الهائل، يومها سرت حثيثًا أتطلع نحو الآخرين باحتقار وازدراء، سأظل أنتظر مواكب الجنازات، أراقبها، أفجرها، أفرح. مثل هذه الأعمال تبدو غير ذات قيمة، أية قيمة ينشدها الآخرون؟ كان شوبنهور يقول: السعادة في الحياة محال، أكثر ما يسعد المرء أن يحيا حياة البطولة، العبث كامن في بنية الأشياء، لا شيء يبرر انسحاقنا وفشلنا، سأحارب في ساحة أُريدها أنا، أحدد أعدائي بوضوح، الأحياء لا يستحقون أن يحاربوا، الأموات أعداء ألدَّاء، لا يستحقون غطاءً ترابيًا، لن أدع الأرض تزويهم، لم يشبعوا حتى من الهواء في حياتهم، احتراقهم يعني إعطاؤهم أكبر كمية من الأكسجين، استهلاك

هذه الكمية من قبل خلاياهم يحقق لها شبعًا تامًا، لن يشعروا بضيق النفس بعد، لن يعتريهم إعياءٌ أبدًا، من يعلم، قد يكون أحدهم مسلولاً، مات وهو يشحذ الهواء كما كانت أمي تشحذ اللبن الرايب من بيوتهم، العطش الرهيب الذي تعانيه خلايا المسلولين لا يوصف، يظلون ظمأى كجسد أرملة مخلصة، العطش يقتل الإنسان، به يزوغ بصره، يضطرب سمعه، يصبح دمه شديد الملوحة، خلاياه تيبس، تجف كجلد عنز وضع في شمس محرقة، حرمان الإنسان من الهواء كحرمانه من الحرية مميت، لن يعيش، لن يشعر بانتسابه إلى هذا العالم، أحس بذلك.

حرية الإنسان تنبع من خبراته، من تجاربه، من التصاقه بالحياة، من حواسه، أمي لم تعرف أسود على أبيض، ماتت وهي تتساءل:

بني، كيف تحل هذه الرموز؟ خطوط خطوط لا تحوي صورة واحدة، أعمى من لا يقرأ، والدك يضيع عندما ندخل عامودًا، لا يعرف كيف يتوجه، كل شيء ملصق عليه اسمه، البر أسهل، أحس فيه بحرية لا تحد، في المدينة أحس بالقيود تكبل عيوني، أتعثر بطرف ثوبي ".

كانت تفتخر بي، تخاطب جارتنا:

ــ هذا يعرف كل شيء، أنظر إلى الأوراق، لا أرى فيها شيئًا وهو يرى ألف كلمة، ابنك لا؟

ــ أحس بالعذاب كدجاجة قُطع رأسها، لا أدري ما العمل، يتيم، يرعى بقر المختار، أعمل أنا، أغسل صوفهم، أحلب أبقارهم، لا تعطيني ثيابها العتيقة، سروالي رقعته مرات لا تُحصى، أخجل أن أطلب سروالها، ابنك سيصبح مأمورًا، يجني ضريبة الأغنام، يرتاح، أفضل له، أحسدك، ابني سيظل راعيًا، أتمنى لو أخذوا حياتي وأعطوه دفترًا يقرأه محال؟. ها؟..

ــ خذي سروالي، رقعته أمس الأول، يُلبَس، اغسلي يديك، صبغت ثوبها مرة أخرى؟ عندها، كل شهر ثوب جديد، تصبغ الثياب العتيقة لماذا؟ تخاف أن يتزوج عليها؟

ــ يتيمي يذبحني، يعود كل مساء تعبًا، يُقعي عند الباب ينتظر حساء العدس الباهت والخبز اليابس، البرد يقتله لا يقترب من الموقد، المختار قاسي، أفكر لو يترك رَعيَ البقر، كيف نعيش؟.

سيطردني من خدمتهم، نرحل ولكن إلى أين؟ لـــدي خيط وإبره؟.. تأخر الوقت.

ــ اقعدي؟ خيِّطي هنا، أساعدك.

ــ ليتيم، حان وقت عودته، ابنك يقرأ، لا يرفع رأسه عن هذه الأوراق، يعمى، إلا يرتاح قليلاً؟!

ــ لا يطيع.

هذه الحوادث الصغيرة ما أعذبها، ما أسعدني بهـــا، تطعمني حقدًا لا ينضب، أتساءل: ابن الأرملة النحيل لم يتعلم لماذا؟ مات أبوه كيف؟ خدعوه كلهم، ضحكوا عليه، أعطـــوه ابنه جاره الغبي، لم يفُه بكلمة، كمَدَ غيظَه كالسُّـــم، عيونـــه امتلأت بوسن ثقيل، كوَّر عباءته على حذائه، أســـند عليهـــا ونام، نامت هي على فراشها.

عندما جاء الصبح، عبر غيم كثيف، ورذاذ لم ينقطع طوال ليل شتائي بارد، نفذت أشعة الشمس الباهتة إلى البيت وكأنها عذراء تستحي من رجل يتعرَّى أمامها، فراشُه كـــان خاليًا، عصاه ليست في مكانها، حذاؤه المنسوج من الصوف المخاط على نعل من جلد جمل لم يكن عند رأســـه، عبادتـــه الوبرية الخمرية اللون لا يدفئ بها قدميه، ذلك الصـــباح لـــم

يكن موجودًا، ناحت عروسه السوداء بقوة، كبوق سيارة نقل الموتى:

ــ أين هو؟.. أرسلتموه إلى الطاحون؟ لكــن بغلكــم مربوط.

لم تنتظر الجواب، هرولت صوب الأرملة، تصــطك أسنانها كأسنان كلب مسعور، شعرها أسود، ثوبهــا أســود، هزتها بعنف:

ــ ابنك أين أرسلتيه، أخنقك، أخَذَ عباءتي، وحذائي، لا يملك إلا عصاه.

ــ مَنْ يا بنيتي؟..

ــ من؟ لا تعرفين من؟. لن تقيمــي هنــا بعــد الآن الحقي به.

غرست يديها في وجهها، سال الدم من خموش عديدة في وجنتيها، أظافرها كانت طويلة، حيلُها قوي، جزت شــعر الأرملة الأشهب، جرتها في أرض البيت الوســخ، الأرملــة المسكينة كانت تعوي:

ــ لست أدري ما تريدين، روحي خذيها، دعيني..

لم تدعها، داست على بطنها بعنف، حدث شيء معيب، لم يضحك أحد، تلوث سروال الأرملة بالبول، غسلته فيما بعد بالوحل الأحمر والماء، وطهرته: كانت تصلي، هذه الذكريات تتكالب في ذهني اليوم، أشعر بالظمأ القاتل، أُريد شيئًا يرويني، منذ أيام وأنا أبحث بقسوة، قبل قليل فقط قرأت نعي أحدهم، حج ثلاث مرات، داره في أحدث حي في دمشق، سيشيع جثمانه ظهر غد، موكب جنازته سيكون رائعًا، سيسير وسط دمشق الملتهبة، على أن أهيئ متفجراتي، إن أولم فرحًا للناس، الحزن، يمتصهم، ليس صدفة أني أعيش في هذا العصر، ليس صدفة أن أحطم هذه الجنازة أيضًا، ليس صدفة أن يذهل الناس، خلف كل شيء أشياء لا تحصى، هذا اليوم، روحي مملوءة بالصفاء، أحرك أصابع يدي بقرح كثعلب يحرك ذيله، ثمة صيد ثمين، أنظر إلى أعضائي بتقدير، أحس بالزهو، كهكتور يوم كان يحمي طروادة، تلمسه أندروماك بحنان ملفوف بشبق خجول، الوقت يمضي، فلأشحذ سكيني الصدئ، منظر الدم يريحني كقصاب اعتاد ذبح الخراف، وليمة كبيرة سأقيمها هذه المرة، أضرب أطنابي وسط المدينة لتؤوي الغادي والآتي، سأملأ صحوني

اليوم، أُشعل مواقدي التي، ملَّت حمل قدوري الفارغة، أول مرة تركبها قدور مملوءة بالتاريخ، أُريد أن أشويه، أعزمهم عليه، لحم التاريخ لذيذ كبكارة فتاة تميل إلى النحافة، لا يشبع الناس من لحمه. منذ دهور وهم يلوكونه، لم ينفد، لم يشبعوا، تابعت سيري نحو دار الميت، الشوارع كانت نظيفة، أنظف من غرفتي، الأشجار على طرفيها نحيفة كفتيات في مقتبل العمر، الصغار كانوا يعودون إلى بيوتهم، عيونهم خجلى، أصواتهم واطئة، يوم كنا صغارًا، صياحنا كان يملأ الدنيا، كنا لا نهدأ، نجري من مكان إلى آخر كعجول شبعة في مرعى خصب، في طريقي مرت برأسي صورة إحداهن، وصل الغثيان إلى حلقي، كانت صغيرة كعلبة كبريت، تتمدَّد على فراشي الملتصق بالأرض، ملمسها ناعم كملمس رخوية خرجت توًا من الماء أعضاؤها التناسلية ضامرة، كأنها لم تبلغ بعد، ذات يوم، عندما أردت أن أركب فوقها مرة أخرى، دفعتني:

ــ لا. قم، مرة واحدة تكفي، ليس هذا أكلاً، لن تشبع.

اليوم، الألم يندفع نحوي كخصم عنيد، يملؤني عطش لا يروي إحساسي بالظمأ هائل، أنا ابن الصحراء الظامئة، جملنا لم يرتو، روحي يطأ به الرمال بنفس الطاقة التي يطأ به الشوك، الموتى، نبات الرُغل الحامض الذي لم يشبع منه، لن أشبع منهم أيضًا، اليوم سيتوافد الناس مرة أخرى مسرعين، يأكلهم إحساس بالشفقة والعجب، دمشق تبتلع ساكنيها بهدوء كما يبتلع قبر بقايا ميِّت، ليخرجوا اليوم، العالم خارج الجدران غيره داخلها، كنت أحدث نفسي بذلك وأنا أقترب من داره، يستقبلني نسيم هادئ وبارد قليلاً، ملأتُ رئتي به كما تملأ قربة بالماء، قلت في نفسي: لن يحول بيني وبينه حائل، لن يفلت، خشبة التابوت لن يحميه، لن أعف عنه، الشحاذ لا يعاف قطعة نقود، كما لا يعرف بعير ظامئ، ماء آسنا، عندما نحتاج لا نرى، لا نسمع، حواسنا، تُشلّ، الحصار الطويل يجلب العفونة، عقولنا تعفنت هي الأخرى، الماضي لا يرقى، إمداداتنا بالحاضر ضاعت بين حراس السور، لم نر شيئًا منها، طعامنا ظل ضئيلاً لا يسمن، حصتنا بخيلة منه، ابتُلعت قبل أن تصلنا، لكأن حوادث التاريخ جواهر نادرة، نصنعها، لا نملكها، عندما نعيد صنعها تأتي

شوهاء غريبة، لا تصنع الأشياء مرتين، اللعنـــة، لا زلـــت أتخبط كطير ذبيح من فكرة إلى أخرى، أخشـــى أن أرتـــوى فجأة فيظل ماء العالم دون شارب، الأسوار الشـــاهقة التـــي تحاصرني تتدنى قليلاً قليلاً، أحس برأسي يتطـــاول كـــرأس زرافة، هدفي التابوت والسيارة، أنا الحصان الهزيل الذي لم يكمل الشوط هدَّني السباق دون هدف، استهلكت نفســـي دون طائل، ابن الأرملة الذي غادر السوداء يسري خلالـــي هـــذه اللحظة، تعلمت منه كيف أتخلى عن أشيائي بهدوء، أخلـــف ورائي ما ملكته في لحظة لا تقبل التأجيل، افتراق أكيد بيننـــا وبين المحيط، نريد أن نتصل معه من جديد، رغبتي الحـــادة في تمزيق الميت تنسل عبر أحداقي كأسهم مسمومة، تقـــرع خشب التابوت الأصفر المطلي بدهان فاخر، توقظ روحـــه، أُريد أن أحاسبه، وأنا القاضي اليوم، قضاة كثيرون حكمـــوا على دون ذنب، أحب أن أكون قاضيًا مرة واحدة، أُريـــد أن أُرتب الأشياء كما كانت ترتبها الأرملـــة العجـــوز بانتظـــار وحيدها الراعي، كانت تنتظره برعب وحنان عند الباب، مـــا أن تراه يطل حتى تهرول نحوه بارتعاش، يداها ترتجفان، في

أماسي الشتاء الشديدة البرودة، كانت تلقاه بلحافها البني: عند وجه البيت، تلفه به وهي تئن: تعال قتلوك، قتلوك.

(٣)

أمر مفهوم لكنه غير ذي قيمة، أين يكمن الخطـــأ إذن؟ الشعور الكاذب بتفوقي، هذا الشعور بالتعالي، لم يكن عبثًـــا، أصل من أصول عدائي مع الناس، لو شعرت أني أحـــدهم، مثلهم، لصمت على الأبد كدنٍ ملئ بالخمر، شعوري بالتفوق يحطم الأسوار العالية حولي، أهاجم، وأهـــاجم، لا يعترفـــون بي، لا أعترف بلا اعترافهم بي، تناقض مسموم يسري فـــي عروقي، أفعيان تتناحران كلاهما شديد السمية، معركتي ذات وجهين، لا يمكن حساب الربح والخاسرة، خصماي عتيَّـــان، أنا، والآخرون، الارتباط معًا لنا سيدعو إلى الرثاء، مطلـــب أن نتخلص منه، كنت أتلوَّى كذئب جريح يحاصره جـــوع لا خلاص منه، أمد يدي نحو شتَّى الاتجاهات كأعمى يبحث عن عصاه لينهض، أتألم كجريح سقط في معركة فاشلة، أُريد أن أجد الحل ــ الخلاص، صورة والدي تقفز أمام عيني، الآن، كلاعب سيرك ماهر بالقضاء عليه، أيضًا، قبـــل أن يمـــوت كطلى هزيل في شتاء ما حل. هذه المرة. لم يكن شـــعوري مختلفًا عن السابق يوم نسفت النعش الأول وهو في طريقـــه

إلى المقبرة العظيمة، لكن التجمهر الذي حققه ذلك الانفجـــار أذهلني: ميت يموت علام يتوافد الناس؟؟. وقفت في طـــرف الجمع أستمع إلى لغط حاد وانفعـــالي بـــين الـــواقفين، آلاف التفسيرات طُرحت، عجيب أمر هؤلاء، لابد أن ثمة ما هـــو، ميتافيزيقي في تفكيرنا، في فيتنام يموت الناس مجموعات لا أحد يتوقف، الكل يتابع سيره..

المقاومون على أرضنا يموتون، تذاع أخبـــارهم، لا أحد يتوقف الكل يتابع سيره، رجل ميت يموت، الكل يتوقف، رعب؟؟ لا. إشفاق؟؟ لا. حب؟ اهتمام؟. الإنسان أكبـــر مـــن التساؤلات، العالم خارج النعش، أغنى، أعظم، أكثر إدهاشًـــا لماذا يتوقفون؟ الحمقى، في غمرة تساؤلي مرَّ بـــي شـــابان، همسا لبعضهما، تساءلا أيضًا، لَكَنَ أحدهما الآخـــر: " هـــذه هي، امشِ، ذاهبة نحو الجامعة، أردافها تقتلني، تهزُّهُما بشكل يرخي مفاصلي، امشِ " سحبه بشدة من ذراعه، قاوم الآخر " دعني، أُريد أن أعرف، حشد هائل ". تابع سحبه بشدة أكثر: " امشِ، بعُدَتْ، حشد بلا سبب، ربما لمس أحدهم ردف امرأة عابرة، أو أن دراجة داست على ساق صبي، امشِ " لحقتها، جرتني أيضًا، أردافها تنفذ عبر النفس كنسيم صباح ربيعـــي،

لا تقاوم، اشتهيت لو امتطيتها، أغمضت عيني، نزعت أثوابها بعنف، مددتها، وقفت فوقها كنمر شرس يقف فوق فريسة منهكة، أخرجني منها اصطدامي بشجرة على الرصيف، تراجعتُ إلى الخلف قليلاً، تابعت سيري من جديد، التفت ورائي، كان الحشد يتزايد كطمي نهرٍ عاتٍ، يثيرني الحشد، أحس بتضاؤلي، يوم كنا طلابًا كانت المظاهرات تجتاح المدينة، تتوقف عند دار المحافظ، يخرج كله أناقة وحشمة، يتكلم وكأنه يلوك لقمة لذيذة، لا يحرك مفاصله، المتظاهرون تحت، تبح حناجرهم، العرق يتساقط منهم، هو، لا، هذا الحشد يثير في نفسي شعورًا أزليًا بالدونية، سأظل في الخلف حتى متى؟؟ لماذا أظل أشعر بالعيّ يملأ فمي كبصاق مُدمَّى، لماذا لا أقف على حائط مهدَّم، أصرخ، أرسل أطرافي في شتى الاتجاهات، أحرك جسدي وكأنه من عجين، أبعث في نفوسهم النقمة، أدفعهم نحو التنين: الشك، أغمر أرضهم البور القاحلة بمياهي الغزيرة، حتى متى أظل أفيض على صخور لا تنبت زرعًا، أغمر نفسي بزبد الرغوة، أتحرك كفراشة ملونة، أين مخالبي؟؟؟ أين أقواسي ونشابي؟؟ دروعي اهترأت دون صدمة، جسدي ذاب تحت ثقلي

الذاتي، سأبرز إلى الحلبة قبل أن أفقد القدرة على الحركة، لن أظل مقعدًا.

عندما وصلت مقصف الجامعة جلست على طاولة وسخة وكرسي أخضر اللون، قبل أن أستريح. هرب تفكيري، فرغت عيوني من النور، كل ما حولي غاص في بحر من الغمام، لم يكن ثمة أفضل من ذاتي، سبحت فيها من جديد دون خشية الغرق، منذ متى وأنا أبحث عن حل لمشكلة الوطن، لم أهتدِ، لا زلت أناقش الأمور بعاطفة غير عاقلة، لم أتعلم من الفلسفة المادية، الأسباب لا تعني عندي شيئًا، شعوري بالأشياء يحددها، يقودني إلى الحب لأسقط فيه، أنا وجزء من فاعلية الحاضر، "هيغل، ماركس، ابن عربي، زنج البصرة، القرامطة، الخوارج" يتكاثرون داخل قحفي بشكل عفوي مثل الجراثيم، دماغي أصبح وسطًا خصبًا، لم يعد تعقيمه ممكنًا، أي حاضر جدير بي، بثورتي اللامرئية؟ إني قمين بذلك، لا ينقصني شيء، يداي سليمتان، ساقي سليمتان، عيوني سليمة، أذناي سليمتان، لا شيء يعوقني، أحب الرصد، التنقل بخفة كقط سيبعد الملل عن نفسي، أحب الصخب، لماذا لا أكون؟ المقاومة ليست دفاعًا عن حق

مسلوب، إنها دفاع مشروع عن وجودي كإنسان، طريقها واضح وسهل، لماذا أظل مُقعدًا، ضمُرت عضلات فخذي، القفز، الجري، التسديد، قد يعيد لي مرونتي، بعد أيام أستلم وظيفتي الجديدة، أسافر إلى تلك القرية، أبعد عن دمشق، أفْضَل، مللتُ الشوارع، الناس هناك أقل أذى، أعمل، أهلي محتاجون جدًا، ألمٌّ لهم، بعض النقود، لا أحد يشفق عليهم، تعلمت من عضلهم، أنقذوني، هذه اللحظات مخيفة، أحس بالخبل يتزايد داخل رأسي، أصبحت انفعاليًا، ردود فعلي لا سيطرة عليها، انفجرت بسهولة قاتلة، فمي ممتلئ بالبصاق، نومي إغفاءات متقطعة كنوم عليل، لا أستقر على حال، أحس أن قُرى من النمل تسكن تحت جلدي، حشرات غريبة تتسلق جسدي، تمتص دمي، أبعدها، تعود من جديد، يا إلهي! أفاعي سامة ذات ألوان براقة تلتف عليّ، تقترب مني مسرعة، أكاد أختنق، هذه الأحياء الغريبة تهاجمني بلا رحمة.. أين وتدُ أبي القصير، أين؟؟ أمدُّ يدي، أفتش، لا أجد غير بنطالي الملوث، وقميصي الذي لم يُغسل منذ زمن، أتراجع..؟ الباب مسدود هو الآخر، لا منفذ غير أن أدوس عليها، على هذه الأحياء المهاجمة، لا أحقد عليها، هي

الأخرى تريد أن تحيا، يا إلهي! ذهني مشتت كغنم بلا راع، وحوشي كاسرة، تنطلق مني هذه المرة مكشرة، عن أنيابهـــا، غدوت شديد الحساسية، كرقٍ مملوء بالدم، شـــديد التـــوتر، انبثق بأقل صدمة، نزقي يتطاير منِّي كشرر نار قش يـــابس، أخشى ألا أعود على السكون، فَلَتَ الزمام من يدي، لن أعود إلى الحظيرة، انفلت كحصان بلا رسن لم يحسن ترويضـــه، العالم واسع خارج حظيرته، كيف سيمسك به؟ قلـــق أســـود يزحف نحوي يا رب، حتـــى أحلامـــي مســـكونة باليـــأس والجنون.

(٤)

في القرية حيث كل شيء مُسطَّح، اعتـــدت أن أســـير ساعات طويلة، دون غاية ما، فيها خلعت ثياب اليأس القديمة ولبست غيرها. هذا المساء، منذ متى والنور ينهمر من القمر كخيوط قضية، وأنا أطرق أرض الشارع الوسخ، وهذا يقف على عتبة داره، من يدري؟؟.. لابد أنه يشك بزوجته، الساعة تزحف نحو الواحدة بعد منتصف الليل، أمشي منـــذ ثـــلاث ساعات، يقف هو الآخر مـــن ثـــلاث ســـاعات، لا أعـــرف زوجته، لا يعرفني هو، استلمت عملي في هذه القرية حديثًا، ربما يخاف شيئًا، أو يعذبه شيء! وينتظر شيئًا، لا يهمنـــي، هذه القرية النائية دُورُها غبراء بنية اللون كقلوب أهلها، لست أدري لماذا، كأن ماءً فاترًا يجري في عروقهم، بلادة هائلـــة تكسو سحناتهم، يسلمون بهدوء، يمشون بهـــدوء، يتكلمـــون همسًا، يتودَّدون همسًا، ينظرون من طرف خفـــي تحـــوطهم حيثما حلُّوا، في البيت، في الطريق! يأكلون النباتات بـــنفس الشهية التي يأكلها بها حلالهم، يتجهون صباحًا إلى حقـــولهم، يسوقون أبقارهم أو أغنامهم، تختلط أقـــدامهم بـــروث هـــذه

الحيوانات، يدوسون عليها، يتربعون ونعولهم لاصق عليها الروث الطازج، لا يشمئزون من ذلك، نساؤهم تعجن الروث، تصنع منه ألواحًا ودوائر، تضعها في الشمس لتجف، تحرقها في الشتاء، توقد بها التنور حين تخبز، يضحكون بلا رغبة، يأكلون بلا رغبة، ينظرون إلى الغرباء بلا رغبة، لا يعرفون ما يريدون، لا يريدون شيئًا، كل ما يأتي جميل، كل ما لم يأت لم يرده الله، يحزنون سريعًا، يفرحون سريعًا، القضاء والقدر ضارب أطنابه حول حدود القرية، لا ينفذ عبره إلا ما شاء جل جلاله، في هذه القرية، لم أتعرف على أحد، شعرت براحة لوحدتي، كنت أسير وحيدًا في الشوارع، أتطلع حولي بذهول هذا القدر الكبير من الراحة، أتساءل، ماذا يحركهم، جوع؟؟ عطش؟؟ حب؟؟ كُره؟؟ سلطة؟؟ رهبة؟؟.. لا.. كل هذا لا يعونَهُ.

مزيج هائل من الرغبات نصف الواضحة، نصف الشبقة، نصف المرغوب بها، يحركهم، تعلموا التمني، أحسنوا صناعة الأمل، لا يرهبهم عوز، لا يخيفهم داء، لا يكرهون سلطة، رؤيتهم لا تتعدَّى حدود قريتهم طالما ثمة حنطة وشعير وشوفان طالما ثمة أبقار لها أثداء، وأغنام لها

صوف، وجمال قادرة على الحمل، فالدنيا نعيم لا مثيل لـــه، خارج حدود القرية، خارج حدود الوطن، في أماكن المعمورة القصيَّة، كل شيء سواء، آذانهم تسمع المذياع، بنفس الوقـــت الذي تلهج فيه ألسنتهم بذكر الله.

فيها، بحثت كملسوع عن صديق، عن شيء أتحـــدث معه، يفهمني، أفهمه، لم يكن ذلك ممكنًا، ذهني ركض صوب صديق قديم لي، قصير القامة، أصلع، يرى الأشـــياء حولـــه بعيني ناقد غير واضح حتى لنفسه، تكلم مذ عرفته، لم أحفظ كلمة واحدة منه، مارس شتَّى أنواع الكتابة، لا أذكر له جملة واحدة، كل ما يصنعه يذوب، مرة واحدة أذهلني:" في قمـــة الوعي، يولد الألم " قالها بهدوء، عيونه كانت شاخصة إلـــى أعلى، تعابير وجهه لا تدل على شيء، لكأنه صفعني، يومها، ضحكت بحقد غير مبرر، الآن تمر هـــذه العبـــارة بـــذهني، كسيف أصيل، تمزَّق ذهولي، تفسر حالة هـــؤلاء: أحـــبهم، يشبهون أهلي، أهلي مثلهم أيضًا.

لا يتألمون إلا إذا جاعوا، أو مات أحدهم، أو نفقـــت إحدى دوابنا، لا أحقد على أحد، كلٌ مسوق إلى سلوكه بقـــوة ما، لكنهم يتعبونني، أضجر، أُريد شيئًا معه، يقعـــد معـــي،

أكلمه، يكلمني، ينظر إلَّ، أبادله أسراري ومتاعبي، يبادلني أسراره ومتاعبه، مائة وثمانون ليرة، راتبي الشهري لن تكون لي كل شيء، حاجتي إلى صديق أثمن منها وأعظم، كيف؟.. البارحة وأنا أتجه صوب مكتبه الخشبي في الدائرة القديمة، جُلت ببصري أردت أن أسلِّم على أحد، أن أقول صباح الخير لأي مار، الجميع كانوا يهربون بأبصارهم عندما أنظر إليهم، يخافون الموظفين والحكام، يستحون منهم، على طريقي تجمَّع عدد من البط غرس مناقيره في بقعة آسنة من الماء، اقتربت منه، دفعت بساقي بينه، تفرَّق وهو يرفرف بأجنحته وبصوت، رفعت ذراعي الأيمن إلى أعلى رأسي، هززته عدة مرات، لوحت للبط، اقترب مني مسرعًا، كله أزيز وخبط، حركته ثقيلة، فرحت: صديق حقيقي هذا البط. حاولت واحدة أن تطير، لم تستطع، تألَّمت، ضحكتُ من أعماقي، لوَّحت لها بذراعي: حاولي: لن تفشلي كثيرًا، ستطيرين، هكذا قال داروين، انتشر همس خفيف بين النسوة على الماء: " يُسلِّم على من؟ يحكي من البط؟ ابن حكومة، هِسْ ".

في اليوم التالي، جاءتني إحدى المراجعات، لم تكن فتاة، لم تكن عجوزًا أيضًا، كانت امرأة متوسطة، وقفت أمامي، لم أعرف ما تريد، كنت مشدودًا نحو ساقيها رغم ثوبها الأسود الطويل، تصوَّرتُ ذات الانفراج المتطاول وقد غطاه العرق، عرق الصيف الحار، الممزوج بغبار الحقول الذهبية اللون، الوقت كان آخر الصيف، أو قبل آخر الصيف بقليل، أكوام الحمص والعدس كانت تملأ الحقول، موسم الحصاد كان في ذروته، النسوة تحصد بقوة وعنف، يجلسن القرفصاء، يمشِّطن الشُجيرات بخفة ورشاقة من أعماق الأرض السمراء المحمرة، ينشر ذلك غبارًا خفيفًا يتجه إلى جذور أفخاذهن، يترسب بين حواجبهن، وحول شفاههن، فصل الحصاد موسم صمتٍ وجنسٍ يانع، غالبًا ينتشر الناس في الحقول، يتمددون بين الزروع الصُفر، خلف أكوام الحجر الملموم من الأرض، لا أحد يدري ما يعملون، يتغوطون، يتعانقون، يمارسون الجنس مع بعضهم أو مع بعض حيواناتهم، من يدري؟ غطستُ في أفكاري، في حين ظلت هي واقفة، خلال هذه الفترة لم تتكلم، لم أسألها من يستطيع أن يتمالك نفسه في حالة الحصار، في حالة القلق يلزم

الإنسان مثيرٌ خفيفٌ ليبدأ بالتدحرج إلى أسفل، كل اللحوم البضة غير المغطاة في دمشق لم تبعث وحوشي كما بَعَثَتْها هذه، أي سر يدغدغ أعصابي اليوم، يجعلني أنتفض كلي، هذا الثوب الأسود الطويل، الذي يُخفي بشرتها الأصلية، هذا الصمت المطبق غير الواعي، هذا الغباء الكثيف الذي يلبسها، يعيدني إلى أصلي الحيواني، يثير فيَّ شهوة عشتها قبل أيام في هذه القرية الملعونة، يوم امتطَى حمارٌ أسود أتانًا تحرّك فكيها بعصبية، لعابها يتساقط استعدادًا للقاء، يومها لم أكن أشعر بالنشوة فحسب، أحسست أني أتطاول، أمتد نحو السماء ألامس الأفق بيدي، أصبح غطاءً شفافًا للكائنات، أعضائي كلها كانت في حالة عصبية خدرة لذيذة، أحداقي شربت المنظر بسهولة وفزع شربته بنشوة صوفية، أعذرتُ نابليون، ذلك القزم اللعين يوم حنَى رأسي تحت قوس النصر، خشية أن يصطدم به، صحيح، النشوة السكر، الانبهار، يعطي الأشياء بعدًا لا هندسيًا، يجعلها ملك أيدينا، نصبح غبارًا دقيقًا، نمرُّ عبر كل شيء دون عناء، أي وجد خبيث يملأ دماغي الآن، قزمٌ أنا، هذه هي الحياة بين فخذيها كزرع شديد الخصوبة، أين مناجلي، جفَّت السنابل جدًا، قريبًا ستنقصف،

تقع حباتها على الأرض، ينقرها الطير، لماذا لا أمد يـــدي، حنطتها غاية في الروعة صـــفراء ذهبيـــة، كشـــفاه امـــرأة مخمورة، قفزتُ فجأة إلى المرحاض، سألتها، بقرف، عنـــدما عدت:

ــ تقفين كالبلهاء منذ فترة، خرساء؟ تريدين شيئًا؟

جاء صوتها أجشَّ، مخارج الحروف عندها مختلطة، تكلمت كثيرًا، لم أفهم شيئًا، كنتُ مرتخيًا كخيطٍ وبرٍ لم يُبرم، لم أكن أسمع، مفاصلي كانت تهتز، كنت أرتجف كلي كمـــن تعرَّض لمطر بارد نهرتها:

ــ تريدين؟ لسانك مقطوع؟ لم أفهم شيئًا تعالي غدًا.

أدارت لي ظهرها، خطت نحنو الباب بألم وصـــبر، أرسلت تنهدات عميقة وهي تخترقه، ألقيتُ رأسي على مسند الكرسي المصنوع من خشب وقش، أغمضت عيوني فـــورًا، قَرَفٌ هائل سكن نفسي تلك اللحظة، أسئلة لا حصر لها كانت تتوارد دون تنظيم.

(٥)

البارحة، السابعة وخمس دقائق، طرَقَ بـــابي حـــلاَّق القرية: أصلعٌ غلاف وجهه، كريه لا يحمـــل أي اطمئنـــان، نظراته تتعثر بكل شيء، رحبت به، جلـــس، اعتـــدل فـــي جلسته، تنحنح أخرج سيكارة رخيصة، أشـــعلها، مـــدَّ لـــي أخرى، أشعلتها، تقابلنا كديكين قبل خصام عنيف، أحسســـت به يشهر لسانه، يريد أن يطعنني، هيأت دروعي، أخرجتها، من أعماق نفسي، لُذْتُ بها، كُلِّي انتباه، فجأة نبح:

ــ وحدي اليوم، لا أعرفك، ما عدت أحتمل، زوجتي سافرت إلى أهلها، منذ ثلاثة أعوام استأجرت دكاني، رأيتـــه بلا شك، رأيتك أكثر من مرة تحلق عند جاري، لم أغضب، أعجبني صمتك، سكنتُ فترة في بيت غير بيتي الحالي، ابن صاحب البيت نظر إلى فخذ زوجتي وهي تتربع على صحن الغسيل، بصقت على أبيه، وتركت الدار، تزوجنا منذ خمس سنين، لم نرزق بطفل، فُحِصَت زوجتي، قـــال الطبيـــب لا عائق لديها. لم أقبل أنا الفحص، كيف؟؟ رجل يُفحص للتأكد من رجولته؟ أغبياء هؤلاء الأطباء، يركضون وراء الدراهم،

يفحصون كل شيء، حتى المَنِي، أنت ابـــن الحكومـــة هـــل سمعت بذلك؟؟؟ المَنِيُ يُفحص؟ تعلَّمت الحلاقة على يد أبـــي، كان يحلق بشفرة عتيقة، كنت أحس جلدي يُسلخ، أتألم، أبكي، لم يكن يهتم بذلك، كان يشرح لي كيف أُصبح حلاقًا مـــاهرًا وهو يجز شعر رأسي، الزمن تبدل، اليوم زبائني لا يشعرون بألم، أحكي لهم، أُسلِّيهم، يظلون صامتين، يدفعون أقل ممـــا يجب، لا أحاسبهم، سيذهبون إلى الحـــلاق الآخـــر، الـــرزق صعب، ها؟؟ كلامي صحيح؟ سكت، وفجأة، أضاف:

ـــ صحيح..

ـــ قل لي تمشي كثيرًا في الليل، أنظرك كـــل يـــوم، أقف بوجه داري، أرقبك، أثرتَني، كنت أتساءل: موظف، له معاش، لماذا يمشي آخر الليل والناس نيام، حسبت أنك غيـــر راض عن معاشك، راتبك لا يكفي، لك أهـــل بحاجـــة إلـــى دراهم، تفكر كيف تزيد راتبك، فرحت قلت: لابد أنه إنســـان مجتهد، مخلص في عمله، مفيد لأهله، رأيتك منذ أيام تقـــف وسط مجموعة من البط تحرّك قدمك وذراعك، تحنو علـــى البط، كيف لا تحِنُّ على الناس؟ الرجال مثلك نادرون، أصبح الناس ذئابًا، لا تمرُّ زوجتي إلا عَبْـــرَ دروب ضـــيقة مـــن

أنظارهم، يأكلونها بعيونهم أحس بهم يلتهمونها، كلاب زوجاتهم لا تملأ عيونهم، لماذا تزوجوا إذن؟؟ سكتُ، وأضاف: أنا وهي لم نرزق بطفل، من يدري أين يمكن الخير؟ ربما تكون ضربة حجر مفيدة، كان في هذه القرية فتىً أخرس، عاش مهملاً، يتكلم بهمهمة، لا يُفهم له قول، مرة أُصيب بحجر، لا يُعرف من قذفه به، ركض بسرعة، صرخ، صرخ، تكلم بعد ذلك، تفهم عليَّ؟ أفهم عليك أيضًا. أحس أني قريب منك، أحب الموظفين، يدفعون آخر الشهر، لا يتأخر دَيْنُهُم، لا أخاف عليهم، سيدفعون حتمًا، أحلق لك بالدَّيْن إذا شئت، ربما تساعد أهلك، تدخر لزواجك، أعرف، آخر الشهر لا بأس أيضًا تفهم عليّْ؟..

ــ أفهم.

ــ حتمًا، لو لم تكن تفهم لما توظفت، الحكومة ذكية، تختار الصالحين، هؤلاء، أهل القرية مثل دوابهم، لا يصلحون لوظيفة، حتى كنَّاس الشارع، الشارع الوحيد في القرية، من بلد آخر، الرجل الذي يمتطي درَّاجة، عليها جلد أسود، يوزع التحارير عليهم، هو أيضًا من بلد آخر، هم يفلحون، يزرعون، يحصدون، يقصون صوف أغنامهم،

يحلبون أبقارهم، يربُّون خرافهم، وكل هذه الأشياء تفر من بين أيديهم، إلى أين تذهب؟. إلى المدينة، تمتص المدينة دمهم، كما ترى، دمهم يذهب في أعمالهم، أعمالهم تذهب إلى المدينة، لا يفهمون، شرحت لهم ذلك مرة، ضحكوا، قهقه المختار: " الحلاق يريد أن يعلمنا.. ".

خجلت. بطني مملوء بالحكايا، لا يسمعونها، لجأت إليك، الموظفون يحسنون الاستماع، أنتم الموظفون، غنم الحكومة، هادئون، لا تعصون رؤساءكم، أوامرهم مطاعة كتعاليم الله، النظام أصل الدولة، من يعصَ تُقطعْ رأسه، العصا جاءت من الجنة، تخافون على أنفسكم ليس عيبًا، كلنا نخاف، " قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق ". الحلاق مثل الموظف يخاف على رزقه، لا ينهر الزبائن، لا يعاملهم بجفاء، يتركه الناس إذا جفا، مصيبة، رزقنا على الناس، نداريهم حتى نعيش، مثلك تمامًا، الدولة تطعمك، لو خالفت أوامرها تطردك، تموت من الجوع، أهل القرية، لا. هؤلاء، لا يخافون أحدًا، يعيشون من الأرض لا تطردهم، إنها أرحم من الناس، أرحم من الحكومة أيضًا، كل سنة تعطي زروعًا ومحصولات، لا تبخل، يشقونها، يتغوطون عليها، يبولون

فوقها، يدوسونها بأحذيتهم، لا تغضب، تظل تعطـــي، حقهـــا علينا، الأرض كلها شيء.

ــ صحيح.

ــ حتمًا، النازحون من يقدرهم؟ في أرضـــهم ربمـــا كانوا أسيادًا، هنا يشحذون، أعرف نساء منهم تضاجع بليـــرة واحدة، جوع؟ لا، عري؟ لا، عطش؟ لا، يأكلون، يشـــربون، يلبسون، كالآخرين، لكنهم فقدوا أرضهم، فقدوا معها تربيتهم ضاعوا، من يعرف من أي أرض أتَـــوا؟ اختلطـــت القـــرى بعضها ببعض يفقد الإنسان كل مكتسباته يوم يفقـــد مســـكنه، خذني مثلاً، لا زلت أذكر دارنا القديمة، حُلِيّ أمي المصنوع من خرز رخيص، أثوابها العتيقة، تعليمها، نوادر أبي،

ضحكات أختي، كل الماضي فـــي ذهنـــي مـــرتبط بالمكان، الأشياء ترتبط بالأرض التي نشـــأت عليهـــا، ثمـــة حادثات لا أنساها لأنها ذات علاقة بقريتي بالطريق الترابـــي الآتي من المدينة، بالعجاج الذي كان يتلـــوَّى فوقـــه عنـــدما تدوسه سيارة، يوم جئت إلى هذه القرية فقدت نصف حياتي، أخلاقي تبدلت، الناس الذي يستحون لا يتركـــون مســـاكنهم، الموت أهون من النزوح، أتساءل، أنت ابن حكومة، حكومتك

تساعد النازحين، تؤويهم، توفر لهم كل شيء لماذا؟ لو كنت الحاكم، لتركتهم يموتون لماذا لم يموتوا، ركضوا، أسرعوا، أداروا ظهورهم، خلفوا كل شيء وراءهم، أمامهم عسل؟ ذُلٌّ، عار، سيعرفون ذلك، ها هي ذي نساؤهم يضاجعها الجنـــود، جنودنا، لم يفعلوا شيئًا بالأمس، اليـــوم كلمـــا تمـــر نازحـــة يغرونها بالدراهم، النفس أمارة بالسوء، نازحة لا تعرف من أي قرية، تقبل، تريد أن تعمر بيتًا جديـــدًا، أن تقتنـــي أثاثًـــا جديدًا، أن تطعم أولادها ربما تكون أرملـــة، مـــن يـــدري، جرايتها لا تكفي، الحكومة لا تشيِّع أحدًا، كلما لاحق جنـــدي نازحة أضرب رأسي بجُمَّاع يدي، أضربه، أضـــربه، مـــرة أمسكت بالمقص طعنت به رأسي، سال منها الدم، خفت، قلت مالي وما لهم، الحكومة أدرى، أعرف مني، أنا حلاق، أستفيد منهم، أكتم غيظي أفضل، أحكي لك، أعرف أنك ابن حلال، لا تؤاخذني، أُسلِّيك وأسلِّي نفسي أيضًا، الغربـــة صـــعبة، لا يتحملها كل الناس، الغربة جهنم، ساعد الله النـــازحين روح الإنسان أرضه.

ــ صداع هائل يطبق عليَّ، تحمل حبوبًا؟ أُريـــد أن أنام.

ــ حبوب؟ أنت موظف، الحبوب الأدوية الدراهم الملابس الجميلة المآكل الشهية عندكم. أنتم الموظفون ربائط علفها أغلى الأعلاف بالدراهم. ساعدنا الله، لا نملك شيئًا، إذا شعرنا بصداع، نربط رءوسنا بمناديلنا حتى نسكن، هات رأسك، أشده لك، تشفَى، لو كان والدي حيًا لقتلته، لم يعلمني، علمني جزَّ الشعر، مهنة قذرة، أنت مرتاح في هذه القرية مدير الناحية مربى منذ فترة، كنت أسير على الطريق، آتيًا من المدينة، رفعت ذراعي لوَّحت له، علَّه يُركِّبني بسيارته، مرَّ كالبرق، لم ينظر إلي، أية حبوب تريد؟. شعير، ذرة، حبوب لوجع الرأس؟ لا توجد عندي، هذه القرية يقطنها الآلاف، حبة واحدة تُسكِّن ألمًا خفيَ لا تحوي، ارفع تقريرًا، يردُّون عليك..

ــ عيوني امتلأت بالنعاس، حديثك رائع، ما تصورتك هكذا، زوجتك تحبك حتمًا، أتمنى لو نظل نلتقي، لو تسكن معي، لنظل نتحدث علنًا نرتاح من همومنا، الدنيا شقية، رياحها سود، تهب علينا، لا ترحمنا، سريت عني، اذهب اليوم، أراك غدًا، نعاس هائل يطبق جفوني، ناخ فوقي كظعونٍ آتية من بعيد.. أُريد أن أحكي، لساني يجرني ما

عدت أستطيع أن أصمت، يقولون الكلام ينشِّـــط الـــدم مثـــل الضحك.

ــ تكلَّم، استمر إذن.

(٦)

أفقت في الصباح، توتر شديد يشل أعضائي، عضلات رأسي متصلبة، الحلاق يرقد عند قدمي، لم يذهب إلى البيت، ذرعت الغرفة عدة مرات وأنا أتمتم. جهودي كلها ذهبتْ هباء، كلماته، هذا الحلاق الثرثار، ترن في مسامعي كأصداء نواقيس بعيدة، سئمت، أغراني المجتمع دومًا، حتى هذا الصباح كان هدفي أن أكون شيئًا، كنت أحلم بالعظائم من الأمور، تخيفني الظروف، عيون الآخرين عيون الآخرين تطعن عندي كالنصول، ألسنتهم تقطع كآلاف الشفرات الرقيقة، كنت أخشاهم، اليوم، لا، تبدلت أشياء جمة، لا أقول دونما سبب، لكني لا أدرك شيئًا، تملؤني رغبة لا تُحد في أن أكون غيري فعلاً، أن أسير عاريًا مثلاً، لماذا ألبس هذه الثياب؟ مائة وثمانون ليرة لا تكفي، لإقناعي بارتدائها إلى الأبد، دار قديمة، لا تكفي أيضًا امرأة، زوجة، أولاد، أهل، كل ذلك لا يكفي، أحس أن هذه الثياب أثقال لا تطاق رزحتُ تحتها كل تلك السنين لماذا؟، مناكبي تقرَّحت، ما عشته أكبر، أقوى، أبقى، علام أضْمَحلُّ دون جدوى، لو كنا ربحنا الحرب

لكانت الأمور غيرها اليوم، لكننا خسرناها، لأنا خسرنا أُريد أن أبدل جلدي، أبدل دماغي، لماذا أحتفظ بثيابي، الحيـــاة لا تحوي شيئًا غير مهم، غباء أن تعترف بلا أهمية شيء مـــا، هؤلاء كيف أقنعهم بضرورة التحول، بالانتقـــال إلـــى حـــال أخرى، لباسي جزء مني، لن يقنَعـــوا، الأمـــور مترابطـــة، متكاتفة إلى درجة الإذهال، من يخشى أن يتعرَّى، لن يملـــك الشجاعة ليثور، تبًا لي، أنا الآخر نازح، لا أرض لي، ممـــن أستحي إذن؟ الناس الذين أخشى ذمَّهم ليسوا هنا، في مكـــان آخر، ربما كانوا يتعرَّون أيضًا، لن يعيِّروني، سأمشـــي لأول مرة كما قذفتني أمي، ألامس الطبيعة بجلدي دون ستار هـــه، هه، هه، بخفَّة القط، خلعت ثيـــابي واحـــدًا واحـــدًا، قـــذفت سروالي الدالي بعيدًا، مررت فوق الحلاق عدة مرات، آخـــر مرة، وقفت فوقه، تدفق البول ساخناً، غمر وجهه، قفز وهـــو يُردِّد:

ــ أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد، أشهد، ماذا. ماذا؟..

ــ اغسل وجهك، قذارة العالم ملأتك، لم تَثُر، شربت فشلك، كما تشرب كوبًا من الماء الحلّي، قُم.

ــ بول؟.. بول.. نجس، أُصلِّي، مجنــون. عــاري؟ أنت لوطي، لماذا نمت عندك البارحة؟ يا إلهــي، أعطيتنــي حقنة منومة، اشتغلت شغلك بي، تعرف كيف تضحك علــى الناس، لم أرد عليه، انطلقتُ خارج البيت وأنا عــارٍ تمامًــا، مفعم بانبهار لا يفسر، لحق بي وهو ينفض ثيابــه ويصــيح مجنون: بال عليَّ، كأنه بالَ عليكم، بولوا عليه، بولوا عليه.

اختلطت الأصوات، لم يقترب مني أحد، كانت النسوة تجتمع بحياد، الرجال الذين كانوا يمرون بي يقفون، ألسنتهم تلهج بذكر الله: " سبحانه وتعالى، فقد عقله، أمه ستموت من الحزن.. " لم ألتفت ورائي، تابعتُ سيري بهــدوء، طرقــات القرية التي مررتُ بها امــتلأت بالنــاس، الأطفــال كــانوا يضحكون بفرح، يقفزون في أرضهم، يمدون رقــابهم بــين أجساد الكبار، يتساءلون: يمشي عاريًا؟ لماذا نلبس ثيابنا؟

اقترب مني أحد الرجال. خاطبني دون مودة:

ــ أنت عاقل، موظف كبير، لا نريدك هكــذا، خُــذ ثيابي إذا شئت تعال معي إلى البيت، الناس ينظرون عورتك، النساء، الأطفال، حتى الحمير تتفرج عليك، تعال.

كنتُ أسمع، ولا أسمع، أرى ولا أرى كان كل شيء في قلبي، لم أرد عليه، تابعت مسيري بهدوء وثقة، كنت أنقل أقدامي بانتظام ورتابة وكأني أحد جنود عرض عسكري، فجأة، تجمَّع أمامي رهطٌ من الناس، سدوا عليَّ الطريق، نفذتُ من فرجة جانبية، هرولت هذه المرة، ركضت، أسرعت في ركضي، لحقوا بي، تصايح الأطفال، ركضوا بجانبي ووراءي، كانوا يقفزون فرحين، ينشدون أناشيد قروية لذيذة، تذكرت طفولتي بهم، بدأت أقفز مثلهم، أصيح، أنشد أناشيد حفظتها في الطفولة، أناشيد عذبة، لذيذة، أسندت يدي على الأرض، قفزت عدة قفزات، تمرغت في تراب نهاية الشارع الغربي في القرية وأنا أتمتم: هه.. هه.. ملأت فمي بالتراب الناعم، مضغته، امتلأ حلقي به، انحدر جزء منه إلى معدتي ورئتي، انتابني سعال متشنج، أمسك الأطفال بحفنات من التراب، نظروا إليها، لم يمضغوها، فجأة ضربوا بعضهم بها ببراءة، استمروا يتراشقون بالأتربة، امتلأ المكان عجاجًا خفيفًا، قلت في نفسي: " ما أروع هذه الذرات المتطايرة ".

فجأة اندفع بعض الأطفال نحوي، أيديهم ملأى بالتراب، رشوني به، تغطَّى جسدي بطبقة ترابية سميكة،

ظللت ساكنًا، لم أتحرك، استمروا هم يصبون على التـــراب كما يصبون ماء على طين يعجنونه، ملأني فـــرح لا يُحـــد، خاطبتهم.

ــ زيدوني أيها الأطفال، ادهنوني بالتراب، امـــلأوا فمي وعيوني وأنفي وأذني به.. امتلأت أفواههم بالقهقهـــات وحفناتهم بالتراب، صبوها فوق رأسي، شعري غـــدا أغبـــرَ باهتًا، وجهي اكتسى بطبقة ثخينة، انقلبـــت علـــى ظهـــري، استمروا يصبون التراب فوق بطني، بغتة جاءني سيل عارم من فرح مجنون: مددتُ يدايَ نحو رأسي، صفعته، شـــددت أذني بقوة، أظافري كانت طويلة، سال الدم من شحمتيِّ أذني توالت ضرباتي على رأسي، نشوتي كانت تزداد تـــدريجيًا، إحساسي بمن حولي كان يتلاشى تدريجيًا، هو الآخر، نمـــتُ لست أدري إن كان نومًا حقًا، لكن إغفاءة طويلـــة غمرتنـــي كمياه تغمر حقلاً واطئًا، كأن طميًا لبيـــرا ترســـب فـــوقي، أطرافي امتلأت بالشلل، جفوني تهدلت كجلد نعـــل جبلـــي، ارتخيتُ كلي ارتخاء لا حدود له، ألف شيء مـــرَّ بـــذهني، غرباء لا يُحصَون تجمعوا داخل رأسي، خيول جامحة كانت تقفز إلى أعلى دون أعنة، هاربون، بشر تزاحم حـــول نبـــع

ماء، كائنات ذات أشكال متباينة كانت تختلط بسرعة، ظـــلام كثيف كان يلف كل شيء، كنت أصيح بحرقة، لم يكن ثمـــة من يهتم بصياحي، الكل كان يَلغطُ كبطٍ على غدير ماء.

(٧)

ما كنت أحسب أني سأزور المستشفى، لم يقدم الأطباء لي شيئًا، هم أيضًا كانوا بحاجة إلى طبيب، كانوا مرضَى بقدر ما كنت أنا أيضًا مريضًا، بقيت صامتًا طيلة فترة وجودي هناك، أحد الأطباء حاول مرة إخراجي من دائرة الصمت:

ــ يسعدنا أن نستقبلك، هذا المكان بيتك، لا تغْتَمَّ، نحن أهلك، لا نعرف القسوة، لماذا تخاف منا؟ إذا تكلمت عما يؤرقك شفيت، صمتك لن يضر غيرك، لسنا شرطة، لن نسجل أقوالك، لن ندينك، تخرج كما جئت، أمرك غريب تحدق بي بشراسة، تحقد عليَّ؟..

أُريد أن أصير طبيبًا.

ــ طبيب؟ آه.. طبيب، خُذ مكاني، إذا شئت كنتَ أنا، أخلع لك هذا؟..

تهزأ؟! حيث لا تكون عدالة يتسلق الحقد والجنون أفئدة الناس كما تسلق صبي شرير أغصان شجرة تحوي عشًا، لن تدرك شيئًا، أنت مربوط بحبال لا تنقطع، عيونك

عمياء، لماذا أتكلم؟ الذين أحبهم يسمعون بعيـــونهم، يـــأكلون بعيونهم، يرون بعيونهم، أنت شيء آخر.

ــ أيُّنا المريض؟ هه! أنت. تقول الذين تحبهم كلهـــم عيون.. انظر قميصي وقميصـــك، لباســـك لبـــاس هـــؤلاء، تعالجون تحت إشرافي، لباسي غير لباسكم، أنا طبيبـــك، أود لو تشفى.

ــ مِمَّ؟

ــ مم؟ أنت مريض.

ــ بم؟

ــ بم؟ أنت مريض.

ــ لم؟

ــ لم؟ أنت مريض، شيء ما يقلقك،

ــ شيء ما يقلقني؟ أشياء، أشياء..

ــ نحن نهتم بالأعراض، ألف شيء قد يكـــون لـــه عرض شيء واحد.. أود لوْ تشفَى، هؤلاء، جاءوا منذ مُـــدَدٍ مختلفة، لم يشف أحدٌ، ظلوا كما جاءوا، أنت شـــيء آخـــر، أتمنى لو تشفَى..

- هؤلاء، أنا منهم، لم يشفَ أحد، سأشفَى أنا؟ كيف؟

- الناس يختلفون كثيرًا، من يدري؟
- المعتوهون سواء، تعذبهم ذات الأشياء، إن لم يشف أحد، لن يشفى أحد.
- كيف؟
- يوم يكون الإنسان ضحية يتلاشى كالأضاحي الأخرى، لا فرق، نحن قوم وثاقنا لن تفكه أنت، أوتادنا لن تُمَشط بسهولة من أرض الجنون، أعماقنا سود، لن تنفذ عبر ظلامها الدامس عيناك.

معتوه حقًا؟!

قفز من على كرسيه فجأة، أدار ظهره لي، وقف قليلاً، قبل أن يمشي التفت إليَّ:

- فكِّر، إذا أردت أن تخرج من هنا، قُل لي بصدق.
- ماذا؟
- ــ لماذا أنت هنا؟
- هذا بيتي، ألم تقل ذلك..
- بيتك؟ كيف؟
- كيف؟
- معتوه.. فعلاً!

خرج من باب الغرفة باندفاع، اصطدم كتفه الأيسر بطرف الباب، أصدر صوتًا خشبيًا مبحوحًا، امتلأ فمي بالبسمة، يختلف طعم الأشياء كثيرًا عندما نزيل عنها الغبار، مرة أخرى بقيت وحدي، نزلاء المستشفى أكثر إيناسًا مما كنت أحسب، يتصرفون بثقة وخشونة، لا يبالون بشيء، تمنيت كثيرًا لو أُحسن التصرف كما يحسنونه، الآخرون يحذفون المعنى من سلوكهم، يعطونه معنى آخر لا يريدونه هم، مغلوبون على أمرهم، أحد النزلاء أثار دهشتي، كان يعتقد أنه ملك، جلساؤه صور رؤساء وملوك العالم، لا يستقبل الأطباء العاديين، لا يتكلم إلا مع الرئيس، رصع لباسه أنواع الخرز والأزرار، أصابعه مملوءة بخواتم مختلفة الأشكال والحجوم، يظل يسير بهدوء وبانتظام كملك يستعرض حرس شرفه، يصحو مبتهجًا منذ الفجر، يجلس على عرشه، يتكلم مع صور أشخاصه الذين اختارهم بإرادته لا يقاطعونه، ينوء صوته تحت حمل أكبر من طاقته، يأتي خافتًا، تتحرك شفتاه بتثاقل كشفاه مخمور يعتذر لحبيبته، يلوك الكلمات عدة مرات يغمض عينيه، يلقي بالكلام وهو أشد ما يكون اتزانًا وطمأنينة، أدمنت النظر إليه، أزوره دون

أن يستقبلني، أقعي على بابه ككلب في بيت بخيل: يرى الطعام ولا يذوقه كانت رائحة العقاقير تفوح منا، يعتقد الأطباء أن حُقَنَهُم ستُشفينا، الذين جاءوا قبلي تقرَّحت جنوبهم من الحقن، عضلاتي امتلأت ثقوبًا، لم أشف، لست معتوهًا، لن تشفيني حقنهم، كل مهدئات العالم لن تجدي نفعًا لي أوْ... لهم، بعد عدة أيام زارني الطبيب مرة أخرى، كان مبتهجًا هذه المرة، قلت في نفسي: لَمْ تنهره زوجته هذا الصباح.

اقترب مني، جلس، حدق بي بحنان، أخرج لفافة فاخرة قدمها لي، دخن هو الآخر، نظر إلى جدران الغرفة،خاطب نفسه: لا تحوي صورًا لا تحوي أحجارًا، لا شيء قد يكون على حق! دخَّن بشدة أكثر، ابتسم، بانت أسنانه النظيفة، نهض، سار عدة خطوات داخل الغرفة، لمس جدرانها بأصابعه، علَّق: "عليها غبار"، كثيف، تأفف: "لم ينظفوا الغرف، سأخصم من رواتبهم هذا الشهر". هؤلاء أيضًا بشر، القذارة تؤذيهم، إذا فقد الإنسان عقله لا يجب أن يعامل كالبهائم، يجب أن يحترم كإنسان بلا عقل.

كان يتكلم بصوت منخفض وهو يضرب بكعب حذائه بلاط الغرفة، صمت، فجأة قذف لفافته، التفتَ إليَّ:

- مِمَّ تشكو؟
- ما شكوت شيئًا قط..
- أنت هنا لماذا؟ كُن عاقلاً.
- لم أضع نفسي هنا، ثم أنا عاقل كما ترى، لم أمزق ثيابي، لم أخدش جدران غرفتي، لم أُلق مفرزاتي على فراشي، آكل بانتظام، ألبس بانتظام، أتغوَّط، أبول بانتظام، لو أتيتني بامرأة أعرف كيف أنام معها، العالم عندي متمايز: يحوي الأزهار والقمامة والتافهين والأشياء الأخرى.
- لماذا جاءوا بك؟..
- رأيت الأشياء غير ما يرونها، اختلفتْ رؤانا، هم أكثر أحكامهم سادية، أحكامي ارتدَّت نحوي، لست نادمًا، أنا مع نفسي أقوى مني معهم، لو كان ثمة حق، لرأيته، لكن العالم لا يحوي حقائق..
- سخفٌ، حتى نزلاء هذا المَشْفَى مفروضون عليه، لم أعد أحتمل.. تعال.

نادى الخادم الذي يشرف على غرفتي، أنَّبَهُ بشدة:

أعطه ثيابه، اصطحبه حتى الباب الخـــارجي، جـــئ بالمريض الآخر من الاستعلامات، ضعه مكانه، سأكلف من يفتش غرف المرضي يوميًا، أسرع.

(٨)

مسكتُ طريق الأسفلت الخارج من المشفى، لم أكن أحمل نقودًا، اتجهتُ نحو المدينة الصغيرة المجاورة له، أحمل براءة من الطبيب:

دخل حاملها مشفانا بحالة سيئة، إثر نوبة انهيار عصبي، يعاني من حالة انفصام لم يثبت الفحص السريري شيئًا، عولج، شُفيَ تمامًا من التأزُّم السيكلوجي الذي دخل بسببه المشفى، لا مانع لدينا من عودته إلى عمله، يرجى الإطلاع وإجراء ما ترونه مناسبًا. "

أعدت قراءتها عدة مرات، أمسكتها جيدًا، لم أكن أحمل نقودًا، قلت في نفسي: ستفكني هذه الوثيقة. في شارع المدينة الرئيسي جلستُ قرب شحاذ. لسانه خارج فمه دائمًا، يبتهل بذكاء، يعرف كيف يلفت الأنظار نحوه، فرشت براءتي، تطلع نحوها، كلم نفسه: يا إلهي! مجنون.

استمر يبتهل، كانت قطع النقود الصغيرة تضرب بعضها في صحنه، تسقط كمطر نادر، تطلعت إليه، الشحم يملأ جسده، مددت الورقة:

أقرأ اعطني بعض النقود، أُريد أن أصل أهلي.

اضطرب لسانه، تعثر في الدعاء، أشاح بوجهه عني وهو يهذي: " مجنون، ابتعد، أنادي عليك. " تملقته: " لست مجنوناً، هذه الوثيقة لا تعني شيئًا، أحتاج بعض النقود " قلت له من جديد:

- أبادلك، خذ هذه الوثيقة، واعطني ما تملك لم يرد..
- لا..
- بلى.. خذ، هات.
- نهبت صحنة، قذفته بوثيقة المشفى، حاول أن ينهض، لم يستطع، كان مشلولا. ركضت، نادَى، لم يهتم به أحد، استمر الناس يتحركون كالدُّمى، رفع ذراعيه إلى أعلى، لسانه امتدَّ قلت: " يدعو الله أن يجزيني، أنا أيضًا أدعو معه. " ضحكة عالية خرجت مني، لكزتُ الأرض بقدمي، كانت الشمس تميل نحو الغروب، تابعت سيري باتجاه دمشق، همست لنفسي بحزن: " فلأسرع، تنتظرني شوارعي، أشجاري، أصدقائي المجهولون ". أحسست أن دمشق ستستقبلني بحنان غير مشوب، حثَثْتُ الخُطى أكثر

كبعير يحمل قمحًا لجياع يحبهم، كنت أقفز من جانب الطريق إلى الجانب الآخر، أركض، أزيز السيارات كان يملأني بالقرف كأبواق جيش منهزم، أنظر إليها حتى تغيب، كانت تمر مسرعة كغيوم ربيع ممطـــر تسوقها رياح شمالية، كنت أردد بأسىً: ســـيارات لا حصر لها من يدري بم يفكر الذين يمتطونها..

(٩)

لم تكن الأمور تسير سيرًا حسنًا، كل شيء ليس غير جلده، أستطيع أن أجزم أن العالم لا يزال كما هو غير آبه بي، الناس أعينهم مغلقة كأحصنة الغراريف، ليس هناك ما يسر، لم يتغير شيء، الوجوه نفسها، الوهم الذي كنت أحاربه بدا يتجلَّى كأنياب كلب مسعور، اعتقدت أن حربي شاملة لم أكن مخطئًا، هي شاملة، فعلاً كما هي وحيدة الطرف، كنت مخمورًا بوهم أزلي، أرهب العيون كما ترهب أفعى قنفدًا، حشوني بالخوف، قبل أيام قرأت مقطعًا من قصيدة جبان، شعرت أن قلبي تقلص، ذلك الرديء لا يريد أن يجابه أحدًا، لماذا؟؟ يقول:

هذه آخر مرة...
أمتطي فيها جوادي..
وأعادي
كل من ليس سواي..
أنا قد سَلّمتُ للريح قيادي..
لم أعد أحكم خطوي..

عندما قرأت ذلك بصقتُ بقرفٍ، تساءلت:

" أتراني لا زلت أعاني شعورًا أزليًا بالعداء رضعته من ثدي أمي الشحاذة؟ " مزَّقت المقطع، وضعت الورقة في فمي، أكلتهما: " أسكن أيها الهدوء بطني، رأسي محشو بالعواصف " كان عليّ أن أواجه العالم الواسع باعتداد، التراكم الكَمِّي لحقدي يبتلعني، كُرهي ليس مطلقًا: هزيمة حزيران، المذياع، أبي، صاحب المقطع الذي أكلته، يتدافعون بخسَّة داخل رأسي كخيول هزيلة على علف ضئيل، حيث ارتميت، ليس من يساعدني على النهوض، كَبْوتي لي، أنا وهم أعداء، أبحث بشراسة، كحية بُتِرَ ذيلها تبحث عن غار تحتمي به، بُتر ذيلي في حزيران، أسراب النمل تولد منِّي، منظر الدم يغريها، لن يحميني منها شيء، الحاضر أقرب، أقذف نفسي عليه، يوم أرى الآلاف منهم يعبرون الحدود ليلاً، لماذا أبحث عن غار، سئمت السكون الكاذب الذي أعيشه، بحري عاصف هذه الأيام، رياحي عاتية، اقتلعت أوتادي من أرض الهدوء، أكلت أقنعتي، أتلمظ، الآن، وأنا أواجه الأشياء بوجهي الأصيل، أشعر بالقيء يملأ فمي كلما مرَّ برأسي الماضي، هدوئي كان ثقيلاً يخترق الحياة كحجر

يخترق ماءً راكدًا قديمًا كان لي صديق حميم، مرة جاء يسيل فرحًا، جذبني من كتفي، حدَّق بي، صرخ:

ــ ثورة في العراق، أركض نلحق بهم، سقط الملك، اليوم عيد، الناس تبتهج، تسير كالأبلـــه، الإنســـان العربـــي عملاق لا يصبر على ضَيْم، لابد أن يثور، ذهـــب "ثـــوري السعيد"، ذهب الملك، الثورة في كل مكان، اركـــض نحتفـــل معهم، هل تصدق أني لم أكن أتوقع الثورة، مـــا هـــو غيـــر متوقع لذيذ، تصوَّر، عَرضَتْ عليك أنثى نفسها، ستطير مـــن الفرح وأنت تبحث عن ظُفر أنثى منذ أعوام. وفجأة هتـــف: يسقط نوري السعيد، يسقط الملك.

ــ اهدأ، منطق التاريخ أن تأتي الثورة، لـــيس مـــن الضروري أن أفرح، لو يفرح الإنسان لكل الأحداث الجليلـــة لمات من الفرح فرحتي بالثورة أكبر من فرحتك، لكن فمـــي مغلق، لا أحب أن أكون عالة على الآخرين: أتساءل؟؟ ما هو دوري في ثورة العراق؟؟ تغمرني الضآلة.. تـــذوب تحـــت ثيابي، من لم يصنع شيئًا لا يحق له أن يفرح، اذهب وحدك، لن أشارك في الاحتفال..

ــ تريد ألا نفرح؟؟ نحزن لماذا؟ ما يعطي للأحداث المعني عواطفنا، العقل كالماء البارد يجعل الأشـــياء تَكِـــشُّ، فرح لن يشاركك به أحد فرح ميت، هات يدك، اهتف، يسقط نوري السعيد، يسقط الملك.

ــ كف عن ذلك، لا أُريد أن أخضع حياتي لضـــريبة عاطفية يتقاضاها الآخرون عن أعمال لم أشارك بها.

اصمُتْ، طالما تهتف لن تعي شيئًا.

(١٠)

كشاطئ شديد التعرُّج، تابعتُ حيـــاتي، أنتقـــل عبـــر الزمان، أتلونُ ألوانًا شتَّى، أستدير حيثما هبَّت الريح كعبـــاد الشمس، أفكار لا تُحصى لوَّثتني كدرب وحيد تقطعه قافلة من بغال، أعوام كثيرة مرَّت، عيوني ازدادت جحوظًـــا، قريبًـــا ستقفز من محاجرها، الليل الذي يستمر في هبوطه يسحرني، قبل قليل كانت الشمس تنحدر بهدوء نحو الغـــرب، أشـــعتها الحُمر صبغت العالم بصفرة باهتة، أحس بانحطاط هائل فـــي قواي، كأن قدري مُبارِزٌ لا يُغلب، لو كنت، سأُخَلَّد لكنت بها جديرًا بمثل هذا الحزن، لكأن صيرورة مســـتمرة تربطنـــي، اليوم، تتجلى مأساتي في الدنف الهائل الذي أعانيه، لم أشـــبع خبزًا يوم كنت صغيرًا ظل الجوع يظهر لي كأشباح مقبـــرة قديمة، بفشلي خوف يلازمني مدى العمر، أكثر مـــن مـــرة، حسبت أني أصير بطلاً. بطلاً لقضية، قضية مـــا، لا أحـــد يدري ما هي، كنت أردد بيني وبين نفسي دائمًـــا: لمـــاذا لا أمتطي جوادي العزوم أبقرز علـــى الميـــدان كفـــارس مـــن العصور الوسطى؟ " رياح الغرب والجنوب الغربي تحمـــل

إليَّ أريج التراب المعطور، من يدوسه الآن؟ أقـــدام غريبـــة تطؤه، لابد أنه يبكى، يبتـــلُّ بدموعـــه، فلأســـرج حصـــاني ولأتوجه صوبه، لابد أنه ينتظرني، ما يقرصـــني الآن هـــو تاريخي الشخصي، لن أدع له الحبل على الغارب، ســـأجلعه عجينة، أصنع منها ما أشاء، لن أظل بلا ماهية، ضائعًا بـــين هذه المخلوقات كنبته صغيرة في غابة اســـتوائية، أُريـــد أن أرى الشمس، أن ألتهم أشعتها دون خوف، أن أطـــأ أرضًـــا صلبة، أن أقف على قدمي وساقاي ممدودتان حتى نهايتهما، مللت انحناءة الظهر الملعونة، الغمام الكثيف الذي غمرنـــي ينجلي الآن، رؤيتي لما حولي أصبحت واضحة كوجه القمر، يوم يريد المرء أن يرى يحقق ذلك، صديقي القديم امتلكنـــي من جديد كقيد فرس أصيل، أتذكره:

" يوم أعرف أني فشلت أموت، خُذ أنت مثلاً، البؤس يغمرك، تأكل اللحم كل شهرين مرة، لن تتاضل، لم تناضل، لم يعرفك أحد، زملاؤنا يهزأون بك، يوم تكون معنـــا تظـــل صامتًا كأنك أبكم، كثيرون تساءلوا إن كنت أخـــرس، نفيـــتُ ذلك، لم تستطع أن تشدني حتى النهاية، كنت أتمنى لـــو أرى صورك ملصقة على الجدران، لو أقرأ اسمك في صـــفحات

الصحف الأولى، لو كنت بطلاً لأصبحت أنا الآخر كذلك لم تقنعني بفشلك أيضًا، أتأرجح بين أرضك وسمائك، أنام كلما فكرت بك. و. "

يوم أعرف أني فشلت أتخطَّى فشلي، أعبره نحو الضفة الأخرى، ما يلجم لساني بصيص من الوعي يتوالد بسرعة هائلة، أنقلب من حال إلى حال بنعومة، كما تنقلب أفعى.

لو كانت الأخلاق تُشترَى، لكنها تتبع منا، نبعي غاضَ، الآخرون شربوا كل قطراته.

تكالبت هلوسات، لم يكن ثمة ما يحميني منها، كنت جارفًا كالسيل، أُريد شيئًا أمزقه بأنيابي، لم أجد غير جاري الشيخ، أقعدته لم يكن يرغب في الكلام، ولم يكن باستطاعتي الصمت، يومها بادرته دون مبرِّر.

نهر الحياة عادت، تدفقه مستمر، شلالاته تنهمر من علو لا يرقى إليه بصر، تتآكل دون جدوى، الظلمة تحوطنا، في آخر الدرب نثوي كحصان هزيل، تهب روائح تفسخنا إلى بعيد، مأساتنا أننا نجيف في خضم الحياة، التقهقر صعب،

والتقدم صعب، ندوس المكان منذ الأزل، ونظل ندوسه إلـــى الأبد، لن نعبر شاطئ النجاة؟؟! ها؟ "

نضرٌ أنت كغصن طري، الحياة أمامك بالغة الوسع، لم يخطر لي ما قلته، إن كان دواؤك حبًا ستشفى، أو جوعًـــا ستشبع، أو عريًا ستُكسى، لا تطمع، أكلت عمري لم أعثـــر على شيء لا تحضن الحياة، اغرفها، اشربها جرعة جرعة، تندم إذا احتويتها دفعة واحدة.

ما دفعني إليك الأطفال الذين يقذفون شباكك كل يوم الحجارة، تطردهم بتؤدة كأنك تخشى عليهم مـــن التصـــدع، يسيئون إليك، أهلهم يمرون بهم، لا ينهرونهم، كأنـــك كلـــب غريب تنهشه الكلاب، لا يحميه أحد، لم أعرف لـــك أهـــلاً، قالوا أنك تعلمت الطب، داويت أهل هذه القرية كما داويـــت أبقارهم وإبلهم وحميرهم، لم تبخل بطبك، حيـــث أصـــبحت شيخًا لا تنفع، تهتز يداك كيديٍّ عاشق مضـــطرب، غـــادرك الآخرون، حتى الدواب التي عالجتهـــا لا تنظـــر إليـــك، لا أؤنبك، أسألك ماذا رأيت في طريقك؟

ما رأيته لا يحكى..

ــ سعيت لتكون من أنت؟؟..

ــ لم أسع، أردت أن أكون آخر، أشرعت قــواربي، لكن الريح جرَّتها إلى شاطئ مجهول.

ــ ندمت؟ الرجل الذي أردت مات، آخرٌ غيره يعيش فيك الآن، كيف أشرح لك.

ــ أفهم، مزَّقني الندم، هدأتُ أخيرًا...

ــ ذاك مات تحافظ على حياة هذا علام؟ جبن؟ رغبة ما؟ قل، أُريد أن أعرف.

ــ تعرف ماذا؟؟ لن تعرف شيئًا، ستحافظ على حياة كثيرين يعيشون عبرك.

ــ لا.. لن أعيش مشوهًا، أنا أولاً.

ــ أحسدك، لو عدت فتيًا لفعلت مــا تفعــل، الهــرم يرخيني كمخاط مزكموم.

ــ تكذب، أنت الآن أجدر بالفعل مني، من يتكئ على الزمن لم ينهض.

ــ تقول..؟

اسمع، يوم كنت صغيرًا، ربَّت أمي جَــرْوًا اعتــاد الراحة وهزَّ الذيل بالحجارة، يصيب رأسه، لكنه لم يكن يبدي نفورًا، يظل يهز ذيله، تعطيه أمي من عشائها، كل الكــلاب

كانت تبحث بشره عن طعامها إلا هو، يضوي قُـدَّام البيـت دائمًا، يتضور جوعًا دون أن يبحث عن طعام، أكثر من مرة سبب شجارًا عنيفًا بين أمي وأبي: " لا تعطه طعامًا، ناوليني ما تقدمينه له، أنا جائع أكثر منه، كلب، يحصل على الطعـام حينما يريد، لو كان هز الذيل يطعم خبزًا لهززت ذيلي طيلة النهار ". أنت، هؤلاء صنعوا منك كلبًا آخر، يمشـي علـى قائمتين بدلاً من أربع، يتكلم بدل أن ينبح، يتملق بعيونه بـدل أن يهز ذيله، جرّوك إلى مستنقع الحياة قسرًا، جهنم أهـون عندك من التخلي عنهم، أليس ذنبك، ظل أبي يهزأ من أمي: " لو كنت تهتمين بي مثله، لبنيت لك قصرًا مـن عظـامي.. يوم تموتين سيموت من الجوع، دمه في عنقك ".

مرة أخرى ليس ذنبك، دمك في أعناقهم، قتلوك وأنت حي.. كلبنا بُعث حيًا فيك، كـان الغربـاء يدوسـون ذيلـه بأقدامهم، لم يكن ينبحهم، أنا أيضًا كان يملؤني غيظًا، كنـت أحمل العصا، أضربه، أطرده، تمنيت مرة لو يعضـني، لـم يعضني، أهملته، آخر الآمر، صرت أبصق عليه كلما مررت به.

ذلك الشيخ الهرم، حزن كثيرًا يوم غادرت القريـــة، حين سرت عاريًا سار ورائي وهو يُردِّد: " صدق.. صدق.. لم يقبل التشوه، انحنى ظهري، غير مجدٍ أن أتعرَّى الآن. ".. ذكراه حلوة عندي، ذلك الشيخ، أتقن الطب البـــدائي، كـــان يكسو أظلاف الأبقار، يضمد قروح الحميـــر، يـــداوي وبـــر الخيل والجمال، أخطأ فهمي، أقرب الطرق إلـــى الخـــلاص الموت، لكنه دون نهاية، لو كان بالإمكان أن نتكلم أفضل، أن نبسط ذاتنا أفضل، ما كنا نموت أبدًا.

الآن، أُريد أن أصل قعر حيـــاتي، عرفـــت وجههـــا الأسود كوجه عانس شنيع، قعرها قد يكون أســـود، أيضًـــا، مليئة بالسماد كمدخنة ذات مئة عام، أُريد أن أبحر خضـــمها الملاطم، خوف كبير يتنامَى داخلي، يهددني، أحس بانهـــدام هائل في جدراني، أجراف واسعة تكبر في جنبي، لكأني ألتهم أعضائي واحدًا إثر واحد.

الأسَى المُمِضُّ الذي يلتف حـــولي يضـــيق كســـوار جليدي يجف، منذ متى، وأنا أبرر؟؟ أفشل فـــأبرر، التبريـــر كان محور حياتي، درت حوله آلاف الدورات، أظـــل أدور إلى متى؟ لم أنطلق خارج مـــداري لمـــاذا؟؟؟... ســـئمت؟.

تلبسني الكآبة كثوب سري الآن تتراقص أمام عيني صـــور النَّدب في المآتم حيث النسوة يلبسن الثياب السود، يجـــتمعن حلقات، حلقات، يتماسكن تارة، تارة، لا، يضربن صدورهن، يخمشن وجوههن، يمسكن الأمـــواس بحركـــات مأســـاوية، يحززن شعورهن، يهرولن نحو المواقد التي تُطـــبخ فوقهـــا اللحوم، يملأن حفناتهن بالرماد، يُدلِّكْنَ به رءوسهن، نـــواحٌ شديد الأسى كن يملأن المكان، الرجال عيونهم تدمع بحيـــاء، صدورهم ملأى بالرصاص، نحـــن الصـــغار كنـــا نلعـــب، نركض، نخترق الواقفين، ننظر إلى اللحوم الحمر تغلي فـــي القدور، أحياناً نقترب منها بســـرعة، ننهـــب ونحـــن نتـــابع الركض بعض قطع اللحوم العائمة، نأكلهـــا، نلوكهـــا وهـــي حارة، أين تلك الحياة التي أكلتهـــا؟ أيـــن اختفـــت ســـنوات عمري؟؟ ما هو الشيء الذي أنجزته؟؟ أليس مـــن حقـــي أن أندب نفسي؟؟ اللعنة!؟ الفشل يعتلي ظهري كما يعتلي فارس نشيط ظهر حصانه.

(١١)

قبل أشهر كان الصيف يشوي، كل شيء محتقن حرارة المحيط ألهبتني، مشيتُ الشوارع واحدًا، واحدًا، أبحث بانتباه علَّي ألتقي بها، يدي في جيبي، تمسك به، تمنعه من النهوض، لم أعثر عليها توجهت إلى المكان المعتاد الذي تتواجد فيه غالبًا، بحثتُ في كل الزوايا، كانت تجلس في ركن قليل الإنارة، تطالع كتابًا، تودَّدتُ لها:

- أُريدك قليلاً، تعالي.

- ردَّت بتعجب: تريد ماذا؟ الفحص غدًا.

قلت بتصميم

- تعالي.

جرَّت زندها بنزق، خرجنا معًا، كانت الشمس تكوي، ثوبها رقيق، أملس جسدها يتحرك تحته بوضوح، جفَّ ريقي، قلت في نفسي:

متى نصل إلى البيت، فاجأتها:

- أبحث عنك منذ ساعات، ليس بوسعي أن أصبر أكثر.

- سأرجع، مُذ عرفتك وأنت تبحث.

امتلأت نفسي بالغيظ، كنا نسير في شـــارع جـــانبي، طوقت عنقها بيدي، ضغطته، علت شفاها زُرقة خفيفة، بلعت ريقها عدة مرات كأني أفقت من إغفاءة مفاجئة، اعتذرت:

ــ اعذريني، كدت أخنقك، لم أكن واعيًا، ليس ذنبي جسدك أو حياتي اليوم.

ــ حيوان، قبل لحظات كنت أكذب، أمـــا الآن فـــلا رغبة عندي فعلاً.

ــ أحتقرك، تطرح نفسك كالأبله، كلمة حنان واحـــدة لا تعرف، مسدسك مهيأ للإطلاق دومًا.

عندك سرٌّ، تملأينني بالحقد والكره والاشمئزاز، لـــو كنت جميلة لكنت تافهة، كنت حطمتك كما يحطم طفل دميـــة ملَّ منها، قبحك يزيد عدم انسجامي مع العالم، يزيد شعوري بالفشل، كل مرة آخذك فيها أشـــعر بالخســـران، أحـــس أن جسدي ينهب، أن عمري ينهب، تملأين نفسي بشبق حاقد لا يطفئه غيرك، بك، أحس أنني أنتقم من كل النســـاء اللـــواتي امتنعن عليَّ، وجهك لا تعلوه ذرة طُهر واحدة، أشـــبع منـــك كيف؟

ـــ لا صبرت قبلاً، أطعتك، ندمت، الجنس المشـــوب بالحقد مخيف، لا تدمرني، لا أحب أن أظل يتيمة.

ـــ تشرحين لمن؟؟ تعالي.

ـــ لا أرغب، لأول مرة أفقد رغبتي، أفهم.

ـــ استعيدي بعض ذكرياتنا: أنا ملقىً على ظهـــري، عارٍ، أنت بجانبي عارية، ابتعدي في الذكريات أكثر، سيكون كل شيء مريحًا، لا تقولي إنك غير راغبة، حياتك لا معنـــى لها، تحققين هذه الرغبة لماذا؟ مجنونة، إذا اشتهاك رجـــل لا تضيعي الفرصة، سترضين برجل لا يشـــتهيك فـــي المـــرة القادمة.

ـــ اتركني، مخادع، يوم التقينا بسطت أمامي ألـــف رغبة تحركك، شيئًا فشيئًا عرفتك، لا يحرك أعماقـــك غيـــر أجسادهن، يوم تمر أمامك أنثى تلحقهـــا عيونـــك، لا تتـــرك انخماصًا في جسدها دون أن تمر به، أحسك تثْوِي في كـــل ثنية من ثنيات جسدها، تقول أنك عبد، ليس لي وحدي، لهن جميعًا، ليس بالوسع إنقاذك من عبوديتك، لو كان من يملـــك غيره لثرت عليه، جوعك، تاريخي لهن خلاصك منه محال،

آمنت بك يوم كانت رؤيتي غيـــر واضـــحة، عرفـــت كـــل وجوهك، لا تجرني إلى بيتك.

هه.. هه.. أمعائي تتلوَّى كأفاعٍ، أحـــس أن الأرض بيضة نعام لا يمكن الركود فوقها، هؤلاء النـــاس مختبئـــون داخل ذواتهم كدود الأرض، متبدِّلون كحـــواف الشـــواطئ، متشابهون كحبات الرمال، منذ وعيت وأنا أبحث عن فرد لا مثيل له، مختلف، لا يشبه الآخرين يتميز عنهم كمـــا يتميـــز السرو عن الكروم، لا زلت أبحث، البارحة كنتُ في مقهـــى، تصوري في مقهى، اثنان يجلسان قربي، كنت صامتًا، أستعيد بعض ذكرياتي، فجأة دخل أحدهم، منظره مشـــوَّش جلـــس معي، بادرني:

" غريب ألم أرك من قبل؟ بلَى! كنت قبـــل لحظـــة هناك، تلعب الزهر، البارحة مساءً كنت تقدم الطعام للزبـــائن في مطعم ليلي، اليوم سمعت بيانك الرائع في أحد النـــوادي السياسية السرية، لا تعجب، اصبر قليلاً، أنت نفسك زُرتنـــا أول أمس، غمزت أختي، لحقت بهـــا فـــي الباحـــة، عنـــدما خرجت زوجة جارنا، سحبتها إلى ركن لا تراه، رفعت ثوبها إلى أعلى، وضعت نفسك بين فخذيها، كنت أنظر إليك مـــن

مكان معتم، عندما رجعت إلى البهو، شاركت في الطعام، قام والدي يصلِّي صليت معه، قبل قليل سمعتك تنادي على جوارب رخيصة للبيع، وأنا في طريقي إلى المقهى، مررت بك تلصق إعلانات على الجدران القديمة، قل: أنت في كل مكان أم كل هؤلاء هم أنت؟ ".

لم أدعه يهذي أكثر، رفعت يدي، صفعته، اصطدمت كفي بالجدار.. تقولين لن تذهبي.؟ من لي غيرك؟ لفقت لك هذه الحكاية لنقترب من البيت، تفرحين عندما أتملقك؟ أعرف، لا يسد مكانتك أحد، وصلنا.

ــ أكاد أصاب بالدوار، ستنتهي كما ينتهي كلب غريب دون ضجة واحتفاء، ذاتك أتعبتك، ستموت كمدًا أيها القذر، أتمنى لو تموت في سبيل شيء ما غير جسدك، زرعت بذور الشر في نفسي، أحس بها تتمور كبذور الدفلي، هيا..

ــ لا تلوميني، المرارة في كل مكان، خسرنا الحرب، وها نحن نعيش.

ــ بسببك.

ــ بسببي؟..

صفعتها بشدة.

لم تجب، دخلت المطبخ، استلقيتُ على الفراش أدمدم أغنية حزينة، تعلقت عيناي بالسقف، بعد لحظات خرجت مسرعة، قذفت بنفسها نحوي، لم أكن أتوقع أنها ستهجم عليَّ، ابتعدتُ. رفعتُ ذراعي، سال الدم ساخناً من عضلات صدري، رفعت يدها إلى أعلى مرة أخرى، تلقيت السكين، أمسكتُ به، لم تتركه بسهولة، تقطعت بعض عضلات يدي، تدفق الدم أحمر قانيًا، تعاركنا فترة، ضربت أسفل بطنها بقدمي، سقطت على الأرض وهي تئن.

كان اللهاث يمسك صدري، ضمدت جروحي بقطع ثياب بالية، بعد ذلك جلستُ قربها، كانت مضطربة جدًا، تتنفسها متسارع كلهاث كلب عَطْش، لونها شاحب، أتيتها بجرعة ماء؛ اشربي، هدأت قليلاً بعد أن سكبت الماء في حلقها، تمددتُ، بجانبها مرهقًا، أغمضتُ عيوني دون إبطاء، نمتُ رأسًا، لكأني لم أنم منذ أشهر.

(١٢)

أفقت صباح اليوم التالي، جروحي تؤلمني، الدم جـــفَّ على ثيابي، قطراته على الأرض يبســـتْ، ذرعـــتُ الغرفـــة الصغيرة عدة مرات وأنا أترنم.

أيام الأسبوع السبعة.

تجري كالموج بلا عائق،

تجري.

الليلة خلف الأخرى،

والأخرى خلف الليلة،

لا أدري من يجري الأول

لا أدري..

هذه الكلمات، كانت ترقص على شفتي، لســـت أدري من أين جاءتني، كان لقلقي وكآبتي طعم خاص تلك الساعة، أحسست أني غيري بالأمس، بسرعة غسلت الـــدم، رتبـــت فراشي، ارتديت أسمالي خرجت لتوي كالتائه، حـــزن بـــالغ يرتسم على وجهي. صُور شتى تتوارد في ذهني توارد إبـــل عطشى على حوض ماء، كنت أنقل خطاي بيـــأس كفـــارس

مهزوم، تسح من عيوني دموع بيض مالحـــة، دون وعـــي كانت شفتاي تتحرك:

" هزمنا في حيزران، من يبكي علينا، لو كانت الأمة شخصًا لتلاشى، لو لم نكن أكبر من الحزن لمتنا، لأني فقدت قبيحة أحسُّ أني هَرُمتُ، لكأني كبرت عشرات السنين، مـــاذا يقول الذين فقدوا أشياء أغلى وأثمـــن، ربمـــا لا يتـــألمون، النفوس تختلف كثيرًا.." بعدما صرت خارج الـــدار شـــعرت ببعض الراحة، عاد لوني إليَّ، أهوى المشي كثيـــرًا قـــدماي كانتا تتسابقان، أحسست أن كل الأمكنة تنتظرني، تعتب علي، لم أسر منذ البارحة، لكم اشـــتقت إليهـــا، إلـــى شـــوارعي، أشجاري، دكاكيني، أرصفتي، أُريد أن أتملاها واحدة واحدة، أتأكد أن أتملاها واحدة واحدة، أتأكد أنها لم تزل كـــالأمس، كأن آلاف الأعوام بين البارحة واليوم، انطلقتُ كالملسوع، لم أترك شارعًا دون أن أمر به، أو شجرة ألمسها.

عندما توسطت المدينة، هدأت قليلاً، توقـــف نشـــاط ذهني نسبيًا، عيوني هي التي كانت تقودني، صـــمت، لكـــأن فمي خيط منذ أمد بعيد، لكني لم أهنأ طويلاً، ســـرعان مـــا أحيت النساء العابرات أمي بعثتها من القبر، أحسســـت بهـــا

تؤنبني: أين أنت؟؟ منذ أعوام وأنا أُطأطئ رأسي، بصري خفيض، تحملت أبيك لأني، أردتك أن تكون أحدًا، أنظرك، ألاحقك كظلك، كل يوم أقول: غدًا سيحقق حلمي، سيتبدل، سيلحق بهم، ستلصق صورته على الجدران، لكنك لا زلت كما أنت تعد أحجار الأرصفة، هَمٌّ كبير يلبسك، من أين جاء همك؟؟ اصطدمتُ بإحدى العابرات، رجعتَ قليلاً إلى الخلف، رفعت رأسي، كنت أسير وهو منخفض، حدقت في المارة، كانوا يمشون مسرعين كطيور عائدة إلى أعشاشها، تساءلت: " هذه الوجوه لا يعلوها أسى لا هَمّ عندهم، تجاوزوا همومهم كيف؟ نبع همومي لم ينضب؟؟ لا أحد ينظر إلى وجهي لا يحمل علائم الأسى؟؟ غير معقول! هم لا يرون؟ غير معقول، همومهم تلهيهم؟ لا، ثمة ما يحركهم، ها هم يمشون مسرعين، لا يأبهون بشيء، ينظرون إلى بعضهم بدناءة تصنعهم يفقأ العيون ".

فجأة، حثثت خطاي، أسرعت في المسير أنا الآخر، قلت لنفسي ليس ثمة مكان أقصده، لماذا لا أجوب كل شوارع المدينة؟ كحصان بلا رسن مشيت من شارع إلى شارع، عيوني لا ترى أحدًا، فجأة أوقفتني يدان: وجدتك، أهلك،

رسالة واحدة لم يتلقوا منك، والدك يموت من الهـم، القمـل يدبى فوقه، ثمن لوح صابون لا يملك، ثيابك نظيفـة كثيـاب عانس، هم ربوك، أطعموك، أرسلوك إلى هنـا لتـرد لهـم الجميل، رسالة واحدة لم تصلهم منـك، لا يريـدون نقـودًا، تخليت عنهم؟ من لهم غيرك؟

والدك شاخ، بلغ من العمر عتيًا، كل مسـاء يجلـس أمام البيت، ينقل بصره إلى الغرب، ينادي أخـاك: دمشـق هناك، أخوك فيها، يجمع النقود، أعرفـه جيـدًا يسـتحي أن يرسل القليل منها، يريد أن يفاجئني، لن يخيب، أمك، ماتـت وهي توصيني به: " هذا، لا تغضبه، سيرفع اسمك، سـيريح شيخوختك. ".

صمتَ فجأة، وتابع فجأة:

مضى زمن طويل لا يعلمون عنك شـيئًا.. تـنفَّس عميقًا، وأضاف:

أنا أيضًا، يناديني كل يوم: " تعالي، هو زميلك، لابد أن يأتي، أو يرسل لي نقودًا، ها؟ " البارحة مساء مررت به، أخبرته بمجيئي إلى هنا، ارتمى على حضني، قبَّلني ألف قبلة

أرسلها لك، ينتظرك، منذ متى وأنا أمشـــط شـــوارع هـــذه المدينة، أبحث عنك، وجدتك أخيرًا. قل لي..

ــ أقول لك، ماذا؟؟

ــ أي شيء، أبوك يهذي من البؤس، أخوك لا يجـــد عملاً، قال لي أن أكتافه تقرحت من حمل الحجارة لأجلـــك، كان يقدم لك كل ما يملك ينتظرونك، كيف أشرح لك، تعرف أهلك.

ــ لا أهل لي.

ــ لن أقول لهم شيئًا، سيموتون من الحزن، المدينـــة صنعت منك نذلا، لآخر مرة، ماذا تحملني لهم.

ــ اللعنة.

ــ تُف.. أبصق عليك بدلاً منهم، تابع ركضك خلف أرداف النساء، لن تكون شيئًا، يا لخيبة أبيك.

ــ وُلد خائبًا، فليُمت وهو خائب، لا أبًا لي.

مشى، ومشيتُ

كررت العبارة بتهكم وأنا أبتعد تابعتُ طريقي يملؤني إحساس مبهم بسعادة غامضة كأن غمامًا زال عن بصـــري، انتشيت فجأة كمن يعثر على زجاجة خمر معتَّق، التصـــقت

وأنا أسير بالجدران، تحسستها بأصابعي، دون مبرر، مررت قرب شرطي المرور، تأملت حركاتــه، جزمتــه البيضــاء، حزامه الأبيض، الدائرة التي يحركها بيده، بعد لحظات تابعت سيري بنشاط، لكأن الأسى زال دفعة واحدة من العالم، لكأنه احترق بنار لا تُرى، حتى صورتها غادرتني بغتة، توقفــت دون سبب، تسمرت في مكاني بتصميم، تلفتُّ نحــو شــتى الاتجاهات، بعدها مشيت بعجالة كأنمــا تحركنــي رغائــب جديدة، من يدري؟؟

كل ما حولي تبدَّل فجأة، لكأني أصــبحت شخصًــا آخر، حتى تلك الغربة التي عذبتني طويلاً ذابت كملعقة سكر في كوب ماء ساخن.

في تلك اللحظات كان توحدي مع الأشياء لا يوصف، كنت أشعر أني عاجز عن تمييز نفسي منها.

كانت الشمس تنحدر نحو الغرب، مساحات لا نهائية خلفت وراءها، برودة خفيفة انتشرت فــي الجــو، أخيــرًا، اتجهتُ صوب عُشي القديم فــي طــرف المدينــة، قــدماي تتسابقان كأرجل فرس أصيل.

ذلك الغروب الهادئ كان يحمل سرًا غير متناهٍ، من قال إن المساء جميل؟! عندما وصلت البيت وقفت عند الباب، أكلته ببصري، لأول مرة رأيت خيوط العنكبوت تملأ ثنياته، بعيوني مسحت حيطان داري، واحدًا، واحدًا، كانت مملـــوءة بشقوق واسعة، ديدان سود واستلقت تتحرك بحريـــة فيهـــا، تنتقل من شق إلى آخر، تطلعت من الشباك، كان كل شـــيء كما هو دفعت الباب بعنف، ارتطم بالجدار، دخلـــت، وقفـــت برهة في منتصف الغرفة واستلقيت بعدها هيـــأت مصـــباح الكاز، أشعلته على فراشي.

مرَّت أيام لم أغادر فيها غرفتـــي، شـــعرت بـــأجلي يقترب، هَزُلَتْ، نحول بطيء كان يسوِّطني، كنت أفتقد جزءًا مني ككل يوم، ضمور متدرِّج يلاحقني، كانـــت الوســـاوس تتراقص حولي، لم أعد أطيق عزلتي، وحدتي كانت مطلقـــة، سجنت نفسي، عيل صبري، صـــرت أشـــتهي وطء الأرض كعانس تشتهي ذكرًا. حفزت فجأة كراعٍ هَـــرِم يحـــنُّ إلـــى قطيعه، امتطيت حذائي بسرعة، مشيت، لم أقصد شوارعي، كالماضي هذه المرة هرعت صوب صديقي الطلاَّء.

كان شابًا طويلاً يميل إلى السواد، بطنه مقعر، يشبه قوسًا محروقًا، جاء من فلسطين بعد النكبة الأولى، اشتغل عند دهَّان قديم سنة دون أجر، سنتين بنصف أجر، يوم استحق أجرًا كاملاً طرده.. حمل سطْلاً صدئًا، اشتري بعض الأصباغ، أراد أن يكون شيئًا كان يستيقظ مع صياح الديكة كل يوم، يطرق الأبواب واحدًا، واحدًا، يسأل أهل البيوت، وكأنه متسوِّل: دهَّان؟.. ينظرون إليه: دهَّان؟ لا.

ظل يعيد هذه الجولة كل صباح، تمنيت لو أكون مثله، أحمل سطْلي، أطرق الأبواب، أقوم بعملٍ ما، الجنون ليس عملاً، إنه موقف، لكم كنت أحن إلى رؤية ذلك الصديق، رغبت بشدة فيه، بحثت عنه بشراهة، اقتحمت بيت أهله:

ــ أين هو، سطُولُهُ هنا، نائم؟

جاء صوت والدته من بعيد.

ــ لا في المرحاض.

تحلَّق أخوته حولي، وجوههم سُحم، جلودها ملس، سوادهم شاحب، هزالهم لا يوصف، لمست عضلات ساعدي،

تحسست فخذي، تنفست الصَّعداء: حتى أصير هكـــذا، يقـــوم المسيح، انحنى وهو يلج الباب، يشدُّ سرواله، رحَّب بي:

ــ أهلاً، أفتقدتك فترة، قلت سافرت.

ــ لا تردني خائبًا، تعدني؟

ــ قل. أعدك.

ــ أُريد أن أكون دهَّانًا.

ــ دهَّان؟ تحمل شهادات، تريد أن تدهن الحيطـــان؟ هه. تهزأ!

قهقهَ، قهقه أخوته الصغار أيضًا، انتشرت ضحكاتهم في المكان كخوار أبقار هَرِمة، قدم لي فنجان الشاي:

ــ اشرب، سوف أعلمك كيف تطلي نفسك.

حملت الكوب بين يدي، رشفت منه عـــدة رشـــفات، وضعته أمامي توسَّلت إليه من جديد:

ــ علِّمْني كيف أُصبح دهَّانًا، لن أنســـى صـــنيعك، الشهادات تعبتُ من حملها.

غاب دقائق، عاد وهو يلبس ثيابًا جديدة، جرَّني مـــن يدي، سرنا معًا أطرقتُ أسىً، أطرق هو الآخر، لـــم نـــتكلم، دخلنا قلب دمشق، قطعنا الشارع من أوله إلى آخـــره عـــدة

مرات، كنا نخترق الناس دون إعياء، لم نعرف كيف مرَّ الوقت، كيف انتهى النهار، قلت له:

ــ نعود إلى البيت؟ تعبنا.

أقبلنا سويا كثورَيِّ فِلاحة، صخب خفيف ينتشر حولنا، انتباهي تجمَّع حول تل اللحظات الفارغة، شعرت بإنهاك لا يوصف، كنت أتمتم: بلغتُ آخر الشوط، حوافري تكسرت، حيرة قاتمة تعانقني، أين شاطئ الأمان؟ أكثر من مرة قطع عليَّ تفكيري، كان يروي بعض الأحداث الصغيرة التي عاشها، لم يكن ثمة ما يُحكَى، كنا نقترب من البيت ببطء، عندما وصلنا، رفعت رأسي، اصطدمت عيناي بعيني أبي، ذهلت: " أي قدر، جاء به اليوم، " رحبت به وأنا أسير نحوه بتخاذل:

ــ أبي.. هلا، أنت هنا، تزورني؟؟ لم أتوقع مجيئك، ارتميت عليه، قبَّلَ وجنتي، تمتم:

ــ بابا، لا تعجبني، مريض؟؟.. وصلت منذ ساعات، أين كنت؟؟

ــ لا، أنا بخير.. كيف البقية؟ كنت أتمشى.

ــ لا تسأل، ملوك.

ــ ملوك؟؟ أي ملوك هم يا أبي؟ لم تزل كالسابق، كل شيء هيِّن عندك، كيف حالهم؟

ــ أردؤهم أنا، كيف تراني، ألست أقوى منك؟..

أدرتُ وجهي بغضب، احتقنت غيظًا: " يكذب عليَّ؟؟؟ لماذا أسأله عنهم؟ أعرفهم. أستطيع أن أتصورهم واحدًا واحدًا، أن أراهم كما أرى نفسي، أعرف كل شيء فيهم، ثيابهم مرقوعة، أحذيتهم مرقوعة، يقول ملوك! يكذب لماذا " شغلت بتحضير بعض الأشياء، انتهيت، جلست قربه، نظرت إليه، كدت أصاب بالخبل: كان كومًا من العظام، دون تهذيب أرسلت يدي نحوه، مسكت جلد ساقه، شددته، كان واسعًا جدًا، قلت لنفسي: " هذا جلد؟؟ أراه أوسع من ثوبه لو كان جلدًا لالتصق بما تحته ".

اعتدل في جلسته كأنه استحَى من تصرُّفي هذا، تربع جيدًا، غطَّى قدميه بطرف ثوبه، طوق عنقي بذراعه، قبَّلني مرة أخرى، دموع كثيرة انهمرت من عينيه، اختلطت بشعره الأبيض، سحَّت عيونه دمعًا لم تجد به يوم موت أمي، همس في صدغي:

ــ رأيتك يا با...؟ ما كنت أصدق ذلك، حسبت أنـــي سأموت وأنت بعيد كثيرون قالوا ذهب، تزوَّج من هناك، لـــم يعد منكم، لم يزل يريد الحياة معكم، قلت لهم كذب، أعرفـــه، من يعرفه أكثر مني؟

ــ هل تزوجت.

ــ تزوجت؟.. هل ترى أحدًا عندي.

ــ جارتك قالت زوجتك تجيء وتذهب، كـــل مـــرة شكلها يختلف، لم أصدق، صحيح؟؟

ــ كذب.

صمتنا فكرت: " أي شيء دفعه ليجيء لابد أن ثمـــة ما هو غيبي في هذا العالم " أحسست بـــاختلاط هائـــل فـــي تفكيري، تشوش لا حدود له كان يشلني، ملأتنـــي رغبـــة لا تقهر في أن أمدَّ يدي، أمسكه بقوة، آكلـــه عضـــوًا عضـــوًا، اختنقت بنشيج مفاجئ صمد كل هذه السنين على حالـــه، لـــم يتبدَّل لماذا؟؟ أبي منذ وعيته لم يتغير: مسبحته ذاتها، ثيابـــه تتشابه حتى كأنه لا يبدِّلها، تعابير وجهه كما هـــي، دموعـــه نفسها تطفر في كل مناسبة، لا يزال كما هو، يا إلهي! هـــذه السنون الطويلة لم تصنع منه شيئًا؟ العالم كله تبدل، إلا هو!

مرارة لا حدود لها ملأت حلقي، أحسست بأمعائي تيبست كجلود القرب، حشرجات متتابعة عبرت صدري كسكاكين حادة.

تركت مكانتي، نقلت بعض الأغراض من مكانها، أردت أن أبعد الكابوس عني، هلوسات لامعقولة كانت تملأ رأسي، كنت أحس بأذني تطن، بلساني يتحرك، لكأني أذوق طعمًا مُرًا، كانت دموعي تنحدر إلى فمي، طعمها مالح، صوتها خافت، يأتي من بعيد، من تحت الأرض السمراء، لكأني أراها.. حذاؤها قطعة من الجلد ونسيج صوف أبيض، تركض ورائي وقد نويت السفر إلى أصقاع مجهولة، تصرخ، تقرعني بحنان: أين تريد أن تروح؟ لا ترد عليَّ لماذا؟!

ألمحها تندب: " لا تبتعد، خذني معك، ما عاش قلب ضيعك ". تخيلاتي كانت مفجعة تلك الساعة، لم يكن احتمالها ممكناً امتلأت بالحزن حتى أنفي. خرجت من الغرفة بتصميم، أشعلت النار في المطبخ رجعت إلى والدي، جلست معه، سألته:

ــ أبي، قل، كيف حالهم؟؟

ــ أوه، الخوف حتى خشومهم.

ــ حقًا؟ تركتهم بأسوأ حال، كيف تبدلت؟

ــ الله كريم يا ولـــدي، لا ييـــأس مـــن رحمتـــه إلا الكافرون.

ــ أرسل لهم ذهبًا؟ الكافرون يملكون أكثر منا.

ــ أعطاهم النظر، السمع، التفكير، لولا الله لكـــانوا حيوانات بهائم، من يدري؟ قد تكون هذه البهائم أكثر راحـــة منا ومنهم، العلم عنده.

لم أعلق على حديثه، تبخرت كل قدرتي على الكلام، لكأن النار التي أشعلتها أكلتني، مرت لحظة مـــن الصـــمت الكئيب، قطعها دخول دخان كثيف علينا وصياح جيراننا الذي جاء ينذرنا:

احترقتم، احترقتم، عجلوا.. "

هبّ والدي كالكبش الهرم، أنفه أعقف، ظهره مقوس، تعثر بطرف ثوبه، كبا، تلقي الأرض براحة يديـــه، نهـــض مسرعًا من جديد، خرج من الباب وهو يُردِّد:

ــ احمنا يا رب، صارت مع مجيئي، قدومي لـــيس خيرًا؟ الستر لم أبدل جلستي، ناداني من هناك:

ــ أين الماء.. أين الماء. هات ترابًـــا هـــات مـــاء، أسرع..

خرجت مضطربًا، بدأ الناس يجتمعون بسرعة، كثُر الأطفال حولنا، أعمدة السقف اسودَّت، بدأت تطقطق، قلـــت لنفسي: " بعد قليل سأتحرَّر، هذه الدار ستزول، لن أنتقل إلى غيرها، سأترك كل الدور. "

صحت بأعلى صوتي: سطْلُ الماء، سأناولك الآخر، رُشّ النار اقتربْ أكثر، تخاف؟؟.

انتحى: " أنا أبوك، الخوف لم يُخلق لي، نـــاولني.. " هجم على النار، كان الدخان أسود كثيفًا، اقتربت منه، ناولته السَّطْل، حركة مجنونة صدرت مني، جاء صـــوته مكتومًـــا كأنفاس مخنوق، تأوَّه بألم، لست أدري كيـــف صـــار تحـــت السقف، كيف تقصفت الأعمدة السود كيف تصدعت أعـــالي الحيطان، بعد ذلك ضاع سريعًا، ألســـنة النيـــران ابتلعتـــه، تكومت الأتربة المنهارة فوقه، وفورًا قذفت سَطْل الماء بعيدًا وأنا أزفر: لم يبق شيء إذن؟ غادرت الدار وهـــي تحتـــرق، شرر كثير كان يتصاعد منها، عبر الدخان الأسود، نادوني:

" أطفئ النار، بيتك يحترق، أبوك وحده؟! "

لم أرُد، تابعت سيري بتصميم كنت أنقل أقدامي بترتيب خاص في قلب المدينة توقفت، تأملت أوجه المارة، لم أشاهد خزيًا، لم أشاهد لؤمًا ولا خِسَّة، هذه المرَّة، سمات أخرى احتلت قسماتهم: عنف، شراسة، قسوة، لم أستطع حصر ذلك، قشعريرة حادة اعترتني، كأن جلدي صَغُر إلى نصفه وفجأة، تابعت سيري وأنا أُصَفِّر لحنًا حزينًا، كنت أُصَفِّرُهُ في طفولتي..

تمت في ٧/ ٣/ ١٩٧١ م.